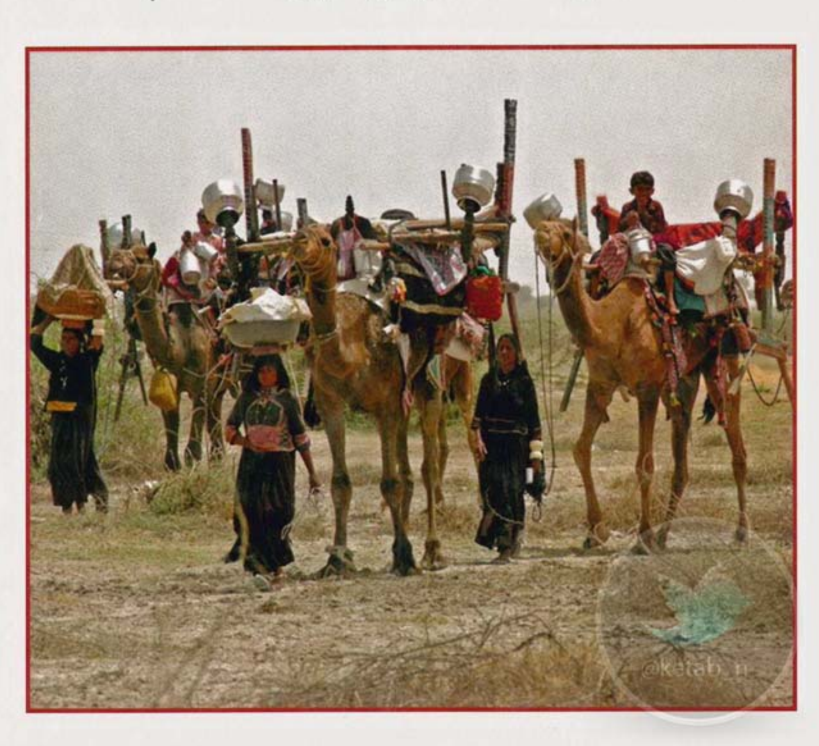
جمال حيدر

الفجر

ذاكرة الأسفار وسيرة العذاب



المركز الثقافي العربي

جمال حيدر

الغجر

ذاكرة الأسفار وسيرة العذاب

الكتاب

الفجر

تأليف

جمال حيدر

الطبعة

الأولى، 2008

عدد الصفحات: 208

القياس: 14.5 × 21.5

الترقيم الدولي:

ISBN: 978-9953-68-330-1

الناشر

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء ـ المغرب

ص.ب: 4006 (سيدنا)

42 الشارع الملكي (الأحباس)

هاتف: 2303339 ـ 2307651

فاكس: 2305726 ـ 2 212+

Email: markaz@wanadoo.net.ma

بيروت ـ لبنان

ص.ب: 5158 ـ 113 الحمراء

شارع جاندارك ـ بناية المقدسي

هاتف: 01750507 ـ 01352826

فاكس: 01343701 ـ 961+

www.ccaedition.com

Email: cca@ccaedition.com

إلى..

كمال وحيدر

في غيابهما المبكر

تقديم

تحقيق صحافي كُلفت به ساقني نحو عوالم الغجر المجهولة، وشرع أمامي بواباتها الخلفية والمخفية. عوالم تسير باتجاه حركة الشمس بعدما استقرّت الأسفار عميقاً في وجدانهم.

هام الغجر على وجوههم.. سبروا الطرقات واجتازوا المدن، ليتوزعوا بين جهات الأرض. ظلوا طوال القرون الماضية على هامش الحياة، بعيداً عن أية فاعلية اجتماعية مع الشعوب التي شاركوها الحياة، واختاروا كل ما هو بسيط، ليتوشج تاريخهم مع النفي والتشرد والاضطهاد.

اختلفت تسميات الغجر في أزمنة مختلفة ومدن متمايزة، غير أنها ارتبطت بالتصورات السائدة لدى العامة عنهم وتتمحور حول معنى موحّد يتبلور بأن الغجر هم: المشعوذون، داكنو البشرة، اللصوص، السحرة، المتسولون، والفئات المنحطة في المجتمع، والكفرة وحاملو الأمراض.

ويعود الكثير من أسباب الرفض الاجتماعي للغجر إلى ممارستهم السحر والشعوذة، إلى جانب التسول والسرقة، مما سهل تحميلهم مسؤولية الأزمات التي تحاصر المجتمعات المستقرة.

بالمقابل تعزّزت في الذاكرة الشعبية الصور السلبية عنهم، لتعكس تالياً المزاج العام ضد كل ما هو غريب ومختلف، وظلت هذه الأفكار مسيطرة على العقلية الجمعية لدى الكثير من الشعوب، مساحات زمنية طويلة.

ولكن من أين جاء الغجر؟

اللغز الاثنوغرافي الذي ظل مجهولاً لقرون عدة، تمّ التوصل إلى جوابه منتصف القرن التاسع عشر، حيث أثبتت الدلائل العلمية أن الهند هي الموطن الأصلي للغجر، بعدما دوّنوا مطلع القرن الثامن الميلادي الفصل الاول من كتاب هجرتهم المتواصلة لعجزهم عن مواجهة موجات الغزو نحو مناطقهم، في ممرات ووديان جبال هندكوش وعلى سفح جبل بامير. ومنذ ذلك التاريخ نزحت قبائل الغجر من ديارها متجهة نحو أفق مجهول.

واصل الغجر ترحالهم نحو واجهة الغرب ليصلوا في القرن التاسع إلى حدود الامبراطورية البيزنطية، ثم قطعوا آلاف الأميال ليصلوا إلى شواطئ بحر ايجة الفاصل بين تركيا واليونان. وبعد أن كانوا يسيرون على هيئة تجمعات بشرية متراصّة، تفرقوا عند بوابة أوروبا إلى عدة موجات ليتوزعوا على مدنها. . حتى تلك القصيّة منها.

ولعلّ التسمية الشائعة التي تطلق عليهم هي «Gypsies» الإنكليزية ويعود أصلها إلى مفردة «Egypt» (مصر) نتيجة الاعتقاد الواهم الذي كان سائداً بأنهم نزحوا من مصر.

تقاسم الغجر تفاصيل الحياة مع الكثير من الشعوب. . أثّروا

فيها وتأثروا بها. حقّق البعض منهم مساحة واسعة من الاندماج، في حين آثر البعض الآخر العزلة غير المباشرة عن المناخ الاجتماعي العام.

يبلغ تعداد الغجر نحو 30 ـ 40 مليون نسمة، تقطن الغالبية منهم حول المدن الكبيرة في ضواحي فقيرة ومهملة، كذلك في الأراضي النائية الخربة، وفي المساحات التي تفصل بين حدود الدول.

بلورت مجمل القوانين القمعية التي اتخذت في كل حين ضدهم، الأثر البالغ في حياتهم، إلى الدرجة التي جعلتهم في صراع مستمر من أجل البقاء، من خلال بحث دائب عن منافذ حياتية، حيث أُجبر مئات الآلاف منهم على العمل كعبيد لدى الأغنياء والأمراء والملوك، في فترات طويلة من القرون الوسطى، وفي أجزاء كبيرة من أوروبا الوسطى والشرقية، خاصة في رومانيا، ولم يتمّ تحريرهم إلا في عام 1856.

غير أن المفارقة هي أن أوضاع الغجر لم تتحسن كثيراً، فما زالوا يعانون من التهميش الاجتماعي والتمييز والفقر، وترسخت النظرة نظرة الدونية تجاههم حتى في أوروبا الحديثة، وظلوا يتعرضون لشتى أنواع الاضطهاد والتمييز وصلت إلى أعلى درجاتها إبان الحرب العالمية الثانية من قِبل النازية التي قتلت الآلاف منهم في أفران الغاز ضمن سياسة منظمة للتخلص منهم باعتبارهم من «الشعوب المنحطة والعناصر الفاسدة».

معاناة الغجر كانت كبيرة، إلى درجة أنها حُفرت عميقاً في تاريخ البشرية، ولكن من دون أن يسلط الضوء عليها ليعرف الجميع المعنى الحقيقي لتلك المعاناة، والتي ما زالت متواصلة بإلغائها أو

تجاهلها. بالمقابل صنع الغجر عبر العقود اللاحقة للمحرقة قدراً كبيراً من النسيان. ويعود السبب أساساً إلى غريزة نسيان أو تناسي الماضي التي تغلّف حياتهم.

التطورات المتسارعة في العقود الأخيرة أفضت إلى تغيرات في نظرة الآخرين إلى الغجر. ففي مجال الأدب استرعوا انتباهاً من نوع جديد مع تحوّل الذوق العام إلى الرومانسية، ما أدى إلى النزوع باتجاه الغريب والغامض، ليغدو الغجر منجماً للحكايات الشعبية والموسيقى والخرافات والطقوس، بحيث أغرى التطلع نحو الحرية والتمرد العديد من الكتّاب والشعراء والفنانين في البحث عن المجهول والمخفي في عالم الغجر.

الإسباني ميغيل سرفنتيس مجّد الغجر في روايته «دون كيخوته» كما قدمهم جورج دي بيزيه في أوبرا «كارمن» وفيكتور هيغو في روايته «أحدب نوتردام»، وبوشكين في ملحمته «الغجر»، ورائعة مكسيم غوركي «الغجر يصعدون إلى السماء».. والشاعر الإسباني لوركا في مجموعته «أغاني الغجر».

استطاع الغجر الحفاظ على تراثهم وتقاليدهم وطقوسهم، رغم انهم عاشوا بين حضارات شعوب عدة على مدى قرون.. جمعوا ما تبقّى لديهم من قوانين وشعائر وقيم وأعراف وتناقلوها بسرّية مطلقة.

ومثلما يزدري الناس الغجر باعتبارهم خارج دائرة التقاليد الاجتماعية، يزدري الغجر بقية البشر ممن هم ليسوا بغجر باعتبارهم غير مهذبين وعبيد الأرض.. أما هم فسادة الأرض. فما من غجري حقيقي يمدّ يده إلى الفأس.. إنه العار بعينه.

السرقة.. العلامة الأكثر دلالة على الغجر في المخيلة الجمعية،

لكن رؤية الغجر تتمايز عن غيرهم لمفهوم السرقة، حيث يعتبرون أن كل الأشياء الموجودة في الطبيعة هي ملك الخالق وحده وللإنسانية جمعاء، وبالتالي ليس من حق أحد أن يتهمهم بالسرقة، خاصة وأنهم تعوّدوا خلال رحالاتهم المتواصلة على التقاط كل شيء يمكن تناوله أو الاستفادة منه.

وثمة جماعات غجرية تمارس السرقة كمهنة مثل بقية المهن للحصول على ما يلزمهم للاستمرار في البقاء. ولا يُعتبر الغجري سارقاً لدى جماعته الا اذا سرق ما هو ليس في حاجة إليه، أو حين يسرق مَن هو أفقر منه.. ويعتبرها الغجر جريمة يعاقب عليها الجاني.

تخلو اللغة الغجرية من مفردتي «يقرأ» و«يكتب»، لذا يستعين الغجر بمفردات من لغات أخرى لوصف هاتين المفردتين.. ويعني الأمر أن الأمية تحاصر حياتهم.

جهلُ الغجر بالكتابة وانعدام لغة مدوّنة خاصة بهم، أدّيا إلى ضياع المعاني الأصلية للقوانين التي توارثوها جيلاً إثر آخر، إذ انتقلت تلك القوانين شفاهاً، الأمر الذي أدى إلى تغيير جذري في مضامينها ومعانيها.

عُرف عن الغجر ارتباطهم بالموسيقى عزفاً وغناءً ورقصاً، وكانت مواهبهم سبباً رئيساً في حصولهم على قدر من الصفح والتسامح.

وتنشد أغانيهم الحب والفقر والظلم والطرق الطويلة، وتغنّت لاحقاً بالتوق إلى الحرية والبحث في الأفق عن بديل مغاير.. ويمكن اعتبار الحنين جوهر الأغنية الغجرية.

ليس للغجر لغة موسيقية مشتركة، فهم حفظوا الأغاني والموسيقى المحلية للشعوب التي شاركوها الحياة واضافوا إليها نكهتهم الخاصة، ونالوا بذلك الاعتراف لتغدو جزءاً من الهوية الوطنية لموسيقى تلك الشعوب.

المعتقدات والأساطير.. هي الأخرى تعكس ثقافة الغجر وممارستهم اليومية، فهم يشتهرون بممارسة السحر وقراءة الطالع وكتابة التعاويذ لحماية أنفسهم وعلاج بعض الأمراض والوقاية من العين الشريرة، ويعزونها إلى الآلهة أو الجان.

في المنطقة العربية تطلق على الغجر تسميات عدة، في مقدمتها النّور والحلب والكاولية، إضافة إلى الغجر. ويمتهن معظمهم حرفة الرقص والغناء، وإحياء الموالد والتسول وقراءة الطالع وتجارة الحيوانات، إضافة إلى مهن هامشية وموسمية أخرى.

يبلور الكتاب محاولة حيادية لتحديد أصول الغجر وطقوسهم ومعتقداتهم وثقافتهم.. إضافة إلى جوانب غير مطروقة مسبقاً عن قيمهم الاجتماعية. واستندت في بحثي إلى مصادر بلغات عدة، إضافة إلى قصاصات ومقالات جمعتها خلال بحثي عن مصادر متميزة وجديدة عن الغجر... لأنأى عن أغلب الكتابات التي سقطت في شرك الصورة النمطية السائدة عنهم.

أسهبتُ في قراءة طقوس الغجر واستعرضتُ عاداتهم، كما تناولتُ بتفصيل تجمعاتهم في عدد من الدول العربية، وتاريخ تواجدهم في دول اخرى شكلوا فيها علامة مميزة على صُعُد شتّى ومستويات مختلفة. ولا أخفي دوافعي بأن يغدو الكتاب أحد المسارات للوصول إلى عوالم الغجر الحقيقية، خاصة بعدما أغفل

عدد غير قليل من الكتب، الجانب المخفي من المنحى الإنساني الذي يغلّف حياتهم، ولم تقترب كثيراً من عذاباتهم المتواصلة.

وبتواضع يمكن القول إنه محاولة للخروج عن السائد مما دُوِّن عنهم على مدى أزمنة امتدت بين رحلتهم الأولى، مروراً بكل الأسفار.. ولغاية حاضرهم المأساوي.

أهديت الكتاب إلى شقيقي كمال وابن شقيقتي حيدر اللذين غيّبهما العنف الطائفي المقيت في مناخ مشحون بالكراهية. غابا مبكراً في غياهب المجهول، وما زال وهم عودتهما يغلّف انتظارنا المتواصل والقلق في آن.

جزيل الشكر للجهود التي قدّمها لي الأصدقاء الشعراء هاشم شفيق، سيد أحمد بلال، مؤيد الشيباني، والفنان أحمد مختار والصحافية تحرير السماوي والباحث رشيد الخيون والاعلامي عبد الستار السكيني.. وادوّن عرفاني بالجميل إلى ولدي آمور لبحثه الدؤوب في المصادر الإنكليزية، وإلى شقيقاتي اللواتي بذلن الكثير في تذليل صعاب الحصول على مصادر عربية عدة، وإلى الأصدقاء شذى مجيد، سهيلة السجاري، عباس الطائي، ورياض راضي، والأديب الراحل عبد الغني الخليلي الذي زوّدني قبيل رحيله بمواد بالغة الأهمية باللغتين الإنكليزية والفرنسية.

لهم جميعاً امتناني العميق ليغدو هذا الحلم حقيقة ذات ملمس.

الهوية

آه يا أسى الفجر
أيها الأسى النقي المتفرد أبداً
يا أسى درب خفي
وصبح بعيد.

لوركا

من النادر حقاً أن تتمايز الآراء وتتعدد النظريات حول هوية وأصول مجموعة إثنية مثلما الغجر، نظراً لتعدد جماعات الغجر وتشتتها في أماكن متباعدة من العالم، كذلك لاختلاف لهجاتها. المحاولات الأولى لمعرفة أصول الغجر كانت غير علمية واستندت أساساً إلى أساطير الغجر ذاتهم، أو إلى الحكايا المتداولة بينهم حول أصولهم.

روي الكثير من الأساطير عن أصول الغجر، بعدما أحاطها الغموض. فقيل إن موطنهم الأصلي مصر، وقيل مرة أخرى إنهم من بلاد ما بين النهرين أو من إثيوبيا، بينما أعاد بعض المؤرخين أصل الغجر إلى عصر السلالات الأولى، وتحديداً إلى نسل قابيل الذي قتل أخاه هابيل. ويفسر لنا سفر التكوين اللعنة التي نزلت على قابيل بميلاد هذا الشعب الذي هام على وجهه وتشرّد صوب كل الجهات «متى عملت الأرض لا تعود تعطيك قوتك. تائهاً وهارباً تكون في الأرض.»[1]

(1) سفر التكوين، الاصحاح الرابع، عدد 12.

وتمّ حل هذا اللغز التاريخي والاثنوغرافي في منتصف القرن التاسع عشر، إذ أثبتت البراهين العلمية أن الهند هي الموطن الأصلي للغجر، كما ساعد علم اللغة المقارن في الكشف عن تلك الحقيقة، إذ يكمن التاريخ الحقيقي للغجر في لغتهم. فرضيات عديدة صورت هجرة الغجر وترحالهم.. بعدما توشجت تسميتهم بمدلولات في غاية السوء. ولعل أقرب الفرضيات إلى الحقيقة هي أن ثمة انكسارات سكانية واضحة حدثت في الحدود بين الجنسين الأصفر والأبيض في المناطق المحيطة ببلاد فارس وتركستان مطلع القرن الثامن الميلادي، وكذلك بفعل توجّه موجات الغزو نحو الجنوب، عمّت الفوضى والانقسامات القبائل القاطنة شمال الهند.

وقد تعرّض الغجر لتلك الموجات نتيجة تواجدهم عند المنافذ التي يمر بها الغزاة من الشمال، وفي ممرات ووديان جبال هندكوش وعلى سفح جبل بامير، الذي يطلق عليه «سطح الأرض» ولعجزها التام عن صد الغزاة، نزحت قبائل الغجر من ديارها متجهة نحو أفق مجهول دونما هدف... لتدوّن الصفحة الأولى في كتاب هجرتها المتواصلة.

تطلق مفردة «غجر» على مجموعات بشرية تنتشر في بقاع متفرقة من الكرة الأرضية، وتتّصف بسمات متقاربة أو متشابهة إلى حد بعيد. ولعل التسمية الشائعة التي تطلق عليهم هي: Gypsy الإنكليزية والتي ظهرت للمرة الأولى في اللغة الانكليزية عام 1537، ويعود أصلها إلى مفردة «Egypt» اي (مصر)، إذ استخدم الغجر هذا الانتماء لفترة زمنية طويلة، في الوقت ذاته أطلق أول رؤساء مجموعة غجرية وصلت إلى أوروبا على أنفسهم لقب «أمراء مصر»، كذلك

استند العديد من الابحاث في دراسة أصل الغجر إلى نبوءة حزقيال القائلة «سأشتت المصريين بين الأمم».

وثمة أسطورة متداولة في روسيا تؤكد أن أصل الغجر من مصر، اذ تقول ان جيوش فرعون غرقت عند اجتيازها البحر الاحمر، ولم ينجُ إلا فتى وفتاة ليتزوجا فيما بعد ليكونا بمثابة آدم وحواء الغجر. بالمقابل يشدد بعض الباحثين على أن الغجر جاءوا من بلاد النوبة، خاصة روبرت صاموئيل الذي اتخذ من نبوءة حزقيال اساساً لدراساته وأبحاثه. في حين أشار عالم الغجريات فيلانت في كتابه الشهير: «التاريخ الحقيقي لأصل البوهيميين» الذي صدر عام 1857 إلى أن الغجر هم بقايا الفينيقيين. اما الباحث بودر يمون فقد نسب الغجر للبابليين وأنهم اضطروا للهجرة إثر خراب عاصمتهم. الشاعر الفرنسي فولتير أدلى هو أيضا بدلوه، إذ أشار إلى أن الغجر هم سلالة من البوهيميين جاءت من كهنة ايزيس بعد اختلاطهم بالعذارى المنذورات للآلهة.

وساعد الغجر، إلى حد ما، على نشر الاعتقاد بأنهم نزحوا من مصر من منطلق العجز والضعف، إلى جانب ردود الفعل التي أحدثتها هجرتهم إلى أوروبا، فاختلقوا الحجج والأعذار الواهية، فقد زعموا أنهم هربوا من مصر نتيجة الجور والظلم الذي لحق بهم. ووجدت تلك الأعذار والأسباب قبولاً لدى بعض المتعصبين، خاصة مع فشل الحروب الصليبية، ليغدو على اثرها الغجر مصريين. هذه اللعنة ظلت تطاردهم في أغلب تفاصيل حياتهم، مقترنة بالتعذيب والتهميش والإهانة لغاية الآن.

الغجر هم ذاتهم ولأسباب غير معروفة حاولوا عبر أساطيرهم

وحكاياتهم الشفاهية المروية، إثبات أصلهم المصري. ويعود أصل الحكاية (الأسطورة) إلى أن رئيس طائفة الغجر آنذاك كاكو جودي، أكد: «عاش جدنا الأعلى نوح بعد الطوفان مع ابنائه ومنهم حام، الذي انحدرنا منه، وسخر حام ذات يوم من أبيه، فلعنه أبوه بأنه سيعيش عبداً، لهذا بقينا عبيداً مدة طويلة. أما أحفاد يافث فقد عاملونا بقسوة شديدة، واكتشف أحدنا (قابيل) طريقة صهر النحاس والحديد وصناعته، ثم أجبرنا على العمل تحت السياط، لينتهي الأمر بثورتنا واسترجاع حريتنا ثم استولينا على أرض الكلدانيين. ضاق بنا هذا البلد فأشار علينا رؤساؤنا بأن ننقسم إلى مجموعتين، تمكث الأولى وتهاجر الثانية. استعدّت المجموعة الأقوى للرحيل شرقاً نحو الهند مزودة بالكتب المقدسة وبأسرار الرموز الدالة على الطريق (باترين) معتقدين أن أجيالنا المقبلة سوف تجتمع ثانية. وصلت المجموعة إلى الهند بعدما جلبت معها لغتها الخاصة وتقنية صنعها للمعادن، فضلاً عن علوم أخرى.

في طريق السفر حدث نزاع بين أفراد المجموعة، فاتّجه بعضها إلى جهة معاكسة ووصلوا إلى مصر وأقاموا هناك. أما المجموعة التي مكثت ولم تهاجر فإنها تعرضت لحرب ضروس شنّها كورش (ملك الفرس) فاضطرت إلى مغادرة أرض الكلدانيين واتجهت نحو بيلازكي (اليونان القديمة) والجزر المحاذية لها. وقد أحسن البيلازكيون استقبالهم وذلك لمعرفتهم صناعة المعادن وأسرارها».

ويحاول الغجر عبر تلك الأساطير وغيرها من الفرضيات إثبات أصلهم وترسيخ هويتهم.. علماً أن الأساطير المذكورة أُعيدت صياغة أحداثها مرات عدة وفقاً لحالة الغجر وأماكن تواجدهم

وعلاقتهم مع الشعوب الأخرى. ومهما تعددت الأسباب والألقاب والتسميات، فإن الغجر هم ذاتهم.. تجمعهم الصفات نفسها وينحدرون من المنبت ذاته.

وتطلق جماعات الغجر على نفسها تسمية روماني Romany وتعني إنسان، والصيغة المؤنثة هي «رومني». ويعتقد أن التسمية نشأت إثر إقامة الغجر الطويلة في رومية (الامبراطورية البيزنطية) في حين يعتقد البعض أنها مفردة غجرية صرف.

اختلفت تسميات الغجر من زمن إلى زمن، ومن بلد إلى آخر، غير أنها ارتبطت بالتصورات السائدة لدى العامة عنهم وتتمحور حول معنى موحد يتبلور بأنهم: اللصوص، السحرة، المتسولون والكفرة. ويطلق عليهم في إسبانيا تسمية «خيتانو»، وفي ألمانيا «التاتران» أو التتر بالنرويجية، إذ يعتقد بأنهم كانوا جواسيس للتتار، وفي المجر «تشيكانو» أو «فراو» اي الفراعنة. ويطلق عليهم اليونانيون «غفتوس»، والاتراك «تشيكاني». وفي دول الشمال الاسكندنافية يسمّونهم «فن» ويطلق عليهم الروس تسمية «جت»، وفي هولندا «جيبتنورس»، وفي فرنسا ينادونهم «بوهيميون». وترجع حقيقة هذه التسمية إلى أن الغجر الأوائل الذين نزحوا إلى فرنسا حملوا معهم رسالة من ملك بوهيميا توصي بحمايتهم وتقديم العون لهم، لذا حملوا هذا الاسم وعُرفوا به واكتسبوا صفة البوهيمية، وغدت تلك الصفة تطلق على كل من يقلّد الغجر في ممارسته الحياتية، اي من كان عابثاً ولا يقيم وزناً للأعراف والتقاليد الاجتماعية.

وفي المنطقة العربية تتفاوت تسميات الغجر أيضاً، إذ يطلق عليهم في العراق لقب «كاولي» وهي مفردة محرفة عن «كابلي» نسبة

إلى كابل عاصمة أفغانستان، وهي إحدى أهم المدن التي مر بها الغجر خلال رحلتهم، في حين يطلق عليهم في بلاد الشام تسمية «نوري» وهو الاسم المحرّف عن لوري وهي القبيلة الأهم لدى الغجر. وفي مصر يطلق عليهم «النور» و «الحلب» إلى جانب تسمية الغجر.

في حين يعرّف الأب أنستاس ماري الكرملي الغجر بأنهم مجموعة من الأشرار كانت تقيم في ناحية مولتان بالهند.. ويرى أن تسمية الكاولية مشتقة من التكول، اي التجمع. أو من (كول) وهي قرية بفارس. وثمة رأي آخر يفيد أن التسمية مشتقة من كاول وتعني باللغة التركية «مهجوم».. اي من خرب بيته وظل متجولاً.

فيما يرى الباحث الدكتور حميد الهاشمي أن أصل تسمية الكاولية كانت تطلق على قبائل هندية كانت نساؤها تمارس الرقص في معبد (كاول) أمام الأوثان، حيث كانت تلك المعابد تستخدم مجموعة من النساء المعزولات عن الحياة العامة لخدمة المعابد والكهنة.

وفي كتابه «الشاهنامة» دوّن الشاعر الفارسي الفردوسي ما يؤكد أن أصل الغجر من الهند، حيث نزحت قبيلة غجرية تدعى «لوري» بعد أن أرسلها ملك الهند «شانكال» عام 420 قبل الميلاد إلى بلاد فارس تلبية لطلب «بهرام غور» ملك فارس (من سلالة الساسانيين التي حكمت ابتداءً من 641 ولغاية 226 قبل الميلاد) باستدعاء مجموعة كبيرة من المغنين والعازفين ومن يتميز بشتى المواهب، للترفيه عن رعاياه الفقراء والمعوزين. جمع «شانكال» إحدى عشرة مجموعة من المغنين المتجولين وحدد لهم مسالك الطريق نحو بلاد

فارس. وحين وصلوا منحهم الملك «بهرام غور» البذور والماشية وخصص لهم الأرض ليحصلوا بواسطتها على رزقهم للعمل على ترفيه شعبه من دون مقابل. ومع نهاية العام الأول ترك الغجر الزراعة بعدما استهلكوا البذور، ليغدوا بالتالي عبئاً على البلد الفقير. غضب «بهرام غور» منهم وأمر بمصادرة ممتلكاتهم وآلاتهم الموسيقية، وأمرهم بالتجوال والغناء في أرجاء البلاد لكسب لقمة عيشهم، ثم اضطروا إلى مغادرة بلاد فارس بحثاً عن رزق ومأوى جديدين. . . ومن هنا بدأت مأساة شعب لم تنته لغاية الآن. ووصف الشاعر الفردوسي في «الشاهنامة» الغجر بأنهم عاشروا الكلاب الوحشية والذئاب وهاموا على وجوههم وهاجموا القوافل وسلبوا المسافرين.

وإزاء تغلغل القبائل الطورانية ـ التركية في مناطق لوريستان، واصل الغجر رحلتهم نحو واجهة الغرب ليصلوا في القرن التاسع الميلادي إلى حدود الامبراطورية البيزنطية، ثم قطعوا آلاف الأميال ليصلوا إلى شواطئ بحر ايجة الفاصل بين تركيا واليونان.

وبعد أن كانوا يسيرون على هيئة تجمعات بشرية متراصة، تفرقوا عند بوابة أوروبا إلى عدة موجات، اتجه بعضها إلى جنوب اليونان (شبه جزيرة بولوبونيز) التي أطلق عليها لفترة زمنية طويلة تسمية «مصر الصغرى» اعتقاداً بأن الغجر الذين يقطنونها أتوا من مصر، ثم اتجهوا جنوباً نحو أواسط آسيا وسورية والعراق، وواصل قسم منهم رحلته سائراً بمحاذاة شواطئ البحر المتوسط متجهاً نحو مصر وفلسطين.

ومن المرجح أن عدداً منهم وصل إلى مضيق جبل طارق ثم العبور إلى اسبانيا. . وهم جماعة «خيتانو». أما الجماعة الجنوبية

الرئيسة التي مكثت في تركيا، فقد عبرت مضيق البوسفور وانتشرت في عموم اليونان وشبه جزيرة البلقان مطلع القرن الخامس عشر، ومن هناك واصلوا رحلتهم إلى أواسط أوروبا، ولعل إنكلترا واسكتلندا تعتبران المدى الجغرافي الأبعد الذي وصلت إليه تلك الموجة، بينما وصل الغجر الذين اتجهوا نحو روسيا وأرمينيا والقفقاس، إلى الدول الاسكندنافية. فيما اتجهت جماعة أخرى جنوباً إلى الخليج، واستمرت صعوداً باتجاه نهري دجلة والفرات. ثم انقسمت ليتجه بعضها نحو البحر الاسود والبعض الآخر إلى سورية، واستمرت الغالبية من المهاجرين بالتسلل بمحاذاة شواطئ البحر المتوسط باتجاه دول شمال أفريقيا.

الغجر يخشون البحر ويفضّلون اجتياز اليابسة على أن يركبوا البحار، رغم أن المياه تعتبر من العناصر البارزة في معتقداتهم.. لذا فالجماعات التي انتقلت إلى أمريكا تعتبر ضئيلة عدداً قياساً إلى المجموعات التي تمسكت باليابسة. وتشير المصادر إلى أن تسعة من الغجر عبروا المحيط باتجاه ولاية فرجينيا عام 1715، ويعتبر هؤلاء من أوائل الغجر الذين دخلوا أمريكا.. لتتواصل المجموعات في الوصول إلى أمريكا تباعاً، والسير نحو المكسيك وعدد آخر من دول أمريكا الجنوبية.

وحين ظهر الغجر للمرة الأولى في أوروبا شاعت حولهم العديد من القصص والحكايا.. وصدرت ضدهم تشريعات مجحفة وقاسية، نتيجة التصورات النمطية التي كانت سائدة عنهم آنذاك، لذا تراجعوا إلى أسفل السلم الاجتماعي وغدوا من الفئات غير المرغوبة.. وقد نما الإحساس بأن الغجر مجموعة اثنولوجية شاذة

ومخادعة، فقوبلوا بالرفض والاحتقار والازدراء، ووصلت الخرافات الشعبية إلى القناعة بأن الغجر يحملون معهم الموت والأمراض.

يعود الكثير من أسباب الرفض الاجتماعي للغجر في عموم أوروبا إلى ممارستهم السحر والشعوذة، إلى جانب التسول والسرقة، مما سهل تحميلهم مسؤولية الأزمات التي تحاصر المجتمعات التي شاركوها الحياة. فعلى سبيل المثال ظهرت في فرنسا منذ القرن السادس عشر ولغاية القرن قبل الماضي عشرات القوانين ضد الغجر تعاقبهم لأتفه الاسباب. بالمقابل كانت رومانيا حتى عام 1856 تعاملهم رسمياً كعبيد، إذ كان لملاك الأراضي جميع الحقوق، ومن بينها القتل.

وفي إسبانيا صدر قانون عام 1499 يجبر الغجري على الاستقرار خلال شهر، فإن لم يفعل يُضرب مئة جلدة ثم يُطرد من البلاد، وإذا ما عاد إليها عوقب بقطع أذنيه ويكبل بالحديد مدة ستين يوماً ثم يطرد من جديد، وإذا ما عاد يحق لمن يعثر عليه تحويله عبداً لديه. وفي عام 1560 مُنع عليهم التنقل كجماعات تتجاوز الشخصين، وإلا عوقب كل من تجاوز سن الرابعة عشرة بثمانية عشر عاماً من الاشغال الشاقة، وهي العقوبة ذاتها التي غدت فيما بعد تشمل كل من يرتدي الملابس الغجرية.

وأُعيد إصدار القوانين ذاتها عام 1619، إلى جانب منع حمل اسم غجري أو التحدث باللغة الغجرية.. وخيّروا بين الخضوع الكلي لهذه القوانين أو الطرد من البلاد. كما جددت إسبانيا تلك القوانين مرات عدة مع إضافات أقسى، ولم تلغ رسمياً إلا بعد حكم الجنرال فرانكو.

الكنيسة هي الأخرى كانت على النهج نفسه، حيث أصدر أسقف باريس قراراً يقضي بحرمان كنسي لكل من يقرأ الغجر كفه. بالمقابل أصدر الملك هنري الثامن في إنكلترا في ثلاثينات القرن السادس عشر مرسوماً يدين ممارسة الغجر لأعمال السحر وقراءة الطالع والتنبؤ بالمستقبل: « الغجر هم جماعة متميزة لا تنتمي إلى أرض معينة وتسمي نفسها «غجر» ولا يعمل أفرادها في أية حرفة أو تجارة، ويتجولون بين المقاطعات والأمكنة على شكل مجموعات كبيرة. وقد تفننّوا في خداع الناس أن بإمكانهم التنبؤ بالمستقبل عن طريق قراءة الكف. وقد ارتكبوا الكثير من الجرائم الشنيعة التي لا تحتمل، كما قاموا بخداع كل من عاش بينهم».[2]

وعرّفت القوانين الأوروبية الغجر بأنهم جماعات متنقلة دون عمل ثابت وتعيش على السرقة والاستجداء، أي بمعنى آخر يمثلون الشكل المناقض للإنسان الاجتماعي المتحضر بوصفه النموذج المثالي الذي تبحث عنه الأنظمة وتحاول ترسيخه في الذهنية الجمعية، وشكلت هذه النظرة القاعدة الأساسية التي استند إليها النازيون لوضع الغجر في أسفل قائمة «الأقوام الوضيعة».

حكومة فينيسيا، استعرضت في بيان لها صدر عام 1558 «الصفات البذيئة التي يتسم بها الغجر، والأضرار الناجمة عن تواجدهم في أي مكان». في حين أشار قانون صدر في البرتغال إلى ارتفاع نسبة الجرائم والسرقة والاحتيال التي ينفذها الغجر.

(2) جماعات الغجر، د. نبيل صبحي حنا، دار المعارف ـ القاهرة، الطبعة الأولى ـ 1980، ص 95.

وبالمثل اتهم الغجر في الدول الاسكندنافية بأنهم مجموعة تقتات على الاحتيال والكذب والشعوذة.

أما في دول البلقان فقد عوملوا كعبيد طوال مئتي عام، وظلوا كذلك في رومانيا حتى عام 1856. واشترطت امبراطورة النمسا ماريا تيريزا منح الغجر حق الحياة باللجوء إلى الزراعة وتعلم القراءة والكتابة والتخلي عن لغتهم والكف عن التسول والاستجداء عن طريق الغناء والرقص، كما سمحت لهم بممارسة بعض الحرف والمهن اليدوية التي تتلاءم مع طبيعة حياتهم. لكن الغجر ظلوا على هامش الحياة ولم يلقوا قبولاً عند الشعوب التي نزحوا إليها، ووصدت دونهم الأبواب، كما بدأت حملات اضطهادهم ونظمت المذابح ضدهم، بعدما اتهموا بالسحر والشعوذة واختطاف الأطفال، لذا حلل العديد من نبلاء أوروبا قتلهم وحرقهم أحياء. ففي فرنسا على سبيل المثال ظل الغجر دون حقوق في عهود لويس الثاني عشر ولويس الرابع عشر ولويس الخامس عشر، فكانت الأشغال الشاقة تفرض على رجالهم دون مقابل، بينما كانت تساق نساؤهم لمتعة الجنود، وينتزع أطفالهم منهم، ولم يتحسن وضعهم إلا بعد الثورة الفرنسية.

ولعل القوى الثلاث الرئيسة في أوروبا خلال العصور الوسطى: الكنيسة، الدولة، والنقابات الحرفية، ساهمت في ترسيخ العداء والكراهية للغجر، خاصة إثر مزاولتهم الكثير من المهن ومنافستهم لأصحابها، ولم يمارس الغجر أية حرفة سوى الحدادة، إلى جانب بعض الحرف الهامشية الصغيرة. وقد دفعت الضغوط الاجتماعية والاقتصادية. . وحتى القانونية، الغجر إلى الاحتيال والغش، في محاولة لمواصلة الحياة.

ومثّل عدم اهتمام الغجر بالديانة أحد أهم عوامل الرفض الاجتماعي لهم، فقد كان الغجر الذين اعتنقوا المسيحية ينصتون إلى قداس يوم الأحد، خارج أبواب الكنيسة. أما من اعتنق الإسلام منهم في المناطق الإسلامية، فكان يجلس في الصفوف الخلفية في المساجد. وفي تركيا كانت تفرض عليهم ذات الضرائب التي يدفعها غير المسلمين، رغم اعتناقهم الدين الإسلامي.

وتعززت في الذاكرة الشعبية الصور السلبية عن الغجر، لتعكس المزاج العام ضد كل ما هو مختلف، وظلت هذه الأفكار مسيطرة على العقلية الجمعية لدى الكثير من الشعوب، إلى قرون عدة. وما زالت العديد من القصص والحكايات تروي عن الغجر بأن الخالق قد لعنهم لأنهم رفضوا إيواء السيدة مريم العذراء خلال هروبها بمعية يوسف النجار والطفل إلى مصر، في حين تتداول حكايا أخرى بأن الغجر أكلوا الكنيسة المشيدة من اللحم، بعدما استبدلوها بأخرى بنوها من الحجارة، وبذلك ظلوا من دون دين. وثمة مثل شهير متداول في دول البلقان مفاده أن في العالم اثنتين وسبعين ديانة ونصف.. والنصف المذكور هو دين الغجر.

وثمة أسطورة تشير إلى أن اللعنة قد حلّت على الغجر نتيجة خيانتهم للسيد المسيح، وأن الله حكم عليهم بالتجوال والتشرد في بقاع الأرض بعدما استجاب حداد غجري لطلب الجنود الرومان بصنع مسامير لصلب السيد المسيح.. وتقول الأسطورة: «حين تسلّم الرومانيون السيد المسيح، ليصلبوه، احتاجوا إلى أربعة مسامير، ذهب جندیان بعد أن تسلما ثمانين قطعة فضة ثمناً للمسامير، وفي الطريق أنفقا نصف المبلغ في إحدى الحانات،

فتوجّها إلى أول حداد صادفاه، فرفض صنع المسامير، فقتلاه ثم ذهبا إلى حداد ثان، فرفض صناعة أربعة مسامير كبيرة مقابل أربعين قطعة من الفضة، فأحرقا لحيته ثم قتلاه، وبعدما حل المساء وبدأت العتمة تنشر خيوطها، خرج الجنديان من مدينة القدس بحثاً عن أي حداد، ووجدا غجرياً ناصباً خيمته وأمامه السندان، فأمره الجنديان بصنع أربعة مسامير كبيرة. وضع الحداد الغجري المبلغ في جيبه ثم بدأ بصنع المسامير، وكان كلما ينتهي من صنع مسمار يضعه أحد الجنديين في حقيبته، وحين بدأ الغجري بصناعة المسمار الأخير أخبره الجنديان بأمر المسامير، فجاء صوت الحدادين اللذين قتلهما الجنديان، خاف الجنديان وهربا دون أن يأخذا المسمار الرابع.

أنهى الغجري المسمار الرابع وتركه يبرد جانباً وسكب عليه الماء، غير أن الماء تبخر وظل المسمار متوهجاً، وازداد المسمار احمراراً كلما سكب عليه الماء. خاف الغجري وقرر الهروب إلى الصحراء بعدما اقتلع خيمته ووضعها على حماره. وكلما حاول نصب خيمته كان المسمار الرابع يلاحقه. وما زال ذلك المسمار (وفقاً للأسطورة) يظهر لسلالة ذلك الحداد الغجري أينما حلوا أو ارتحلوا».

انتشرت تلك الأسطورة وبتفاصيل وأحداث مختلفة، لتغذي المناخ السلبي ضد الغجر، وبدأت العقلية الشعبية بنسج الكثير من الروايات والأساطير والأوهام التي تتهم الغجر وتتوجس منهم ثم محاربتهم وقتلهم. فقد ذكرت إحدى الروايات بأن ولادة أول غجري كانت نتاج مجامعة حواء لآدم بعد موته، بينما تشير قصة أخرى إلى أن الغجر هم نتاج زواج الجان. . لذا لديهم القدرة على إيذاء بني

البشر والإيقاع بهم، لهذا ما زال الغجر يعيشون منذ قرون على هامش المجتمعات التي يتواجدون فيها، بعدما ظلت صورتهم النمطية ملتصقة في ذهنية الآخرين بأنهم مجموعات متشردة.

تميز الغجر في ملامحهم بأنهم يميلون إلى السمرة الشديدة بصفة عامة، ويتدرج لون بشرتهم من البني الفاتح إلى الأسود، ويتطابق عادة لون شعرهم مع لون بشرتهم، كما أن للغجري أسناناً براقة وعينين لامعتين.. ويمتاز بأنه قصير القامة ممتلئ الجسد ذو منكبين عريضين وجبهة نحيفة. أما النساء فذوات لون شديد السمرة وشعرهن أسود طويل عادة. وليس للغجر ملابس قومية، فهم يرتدون ملابس المكان الذي يقطنون فيه، مع استخدام بعض الحلي المصنعة يدوياً كتعاويذ ضد السحر.

وثمة ثلاث جماعات رئيسة من الغجر وهي:

ــ كالدرس: وهي الشريحة التي يعتقد بأنها ما زالت تحمل الدم الغجري النقي، وتمتهن هذه المجموعة صناعة النحاس، وتعني مفردة كالديرا في لغة الرومني إناء من النحاس.. وقد جاءوا أساساً من البلقان ويعتقدون بأنهم أعلى قبائل الغجر شأناً، وتتوزع هذه الشريحة إلى خمس مجموعات:

* لوفاري: يطلق عليهم في فرنسا «المجريون» بعد أن مكثوا طويلاً في هنغاريا.

* بولهاس: وفدوا من رومانيا قبل الحرب الكونية الثانية، ويمتهن معظمهم ترويض الحيوانات.

* لوري: وهي المجموعة التي ما زالت تحمل اسم القبيلة الهندية التي ذكرها المؤرخ الفردوسي في «الشاهنامة».

* جورراي: تعيش هذه المجموعة منفصلة عن بقية غجر كالدراس.

* تركو أمريكان (الأتراك الأمريكان): اتصفوا بهذه الكنية كونهم هاجروا إلى الولايات المتحدة من تركيا قبل عودتهم إلى أوروبا.

ـ خيتانو: ينحصر وجود هذه المجموعة في الغالب الأعم في إسبانيا والبرتغال وجنوب فرنسا، ويختلفون عن غجر كالدراس بالملامح والعادات واللهجة، وينقسمون إلى ثلاث شرائح:

* الإسبان

* الكتالونيون

* الأندلسيون

ـ مانوش: وهم البوهيميون التقليديون، ويعني اسمهم بالسنسكريتية (الرجل الحقيقي) أو (الكائن البشري) وتطلق عليهم تسمية (سنتي) لاحتمال أن أصلهم الهندي يعود إلى السند. ويدل الاسم أيضاً على الشخص البالغ كإشارة للاحترام، ويتوزعون على مجموعات عدة:

* فالسيكان: وهم الغجر الذين يعملون في المسارح المتنقلة.

* غايغيكان: ويسمون أيضاً سنتي الألمان، وقد اختلطوا مع البدو الأوروبيين الذين لا ينتسبون إلى الغجر، رغم أنهم يحيون الطقوس والتقاليد ذاتها.

* بيامونتسي: وهم سنتي إيطاليا، وتنقسم هذه المجموعة إلى

عدد آخر من المجموعات الصغيرة، ولعل من أهمها: بليدراي، شيفوت، كيوباتوري، كوستوروراري، غيلاباري، لوتاري، لينغيوراري، ميشتيري لاكاتوشي، روداري، سالاهوري، فاتراتشي، زلاتاري.

وتعمل تلك الجماعات في إطار الأعمال الهامشية وفي الصناعات اليدوية الصغيرة كصناعة الأحذية والأدوات الخشبية وأعمال البناء والطلاء وصناعة الآلات الموسيقية الوترية.[3]

وإلى جانب جماعات الغجر الثلاث الرئيسة ثمة جماعات غجرية أخرى من غجر إنكلترا وإيرلندا واسكتلندا.. وتتطابق مواصفاتهم مع غجر كالدراس تحديداً.

(3) The gupsies, Jean-Paul Clebert. Vista book, London, 1963.

القيم والأعراف

ما زلت أذكر

جلت العالم برفقة خيمتي

أبحث عن الحب والعاطفة

عن العدالة والسعادة

....

كبرت

ولم أجد الحب بعد

ولم أسمع مفردة العدالة

إذن.. أين تكمن حقيقة الغجر.

الشاعر الغجري

ريسم سدجيك

واجه الغجر التغيرات الاجتماعية ابتداءً من مغادرتهم الأولى لموطنهم الاصلي الهند. . ولعل الاختلافات بين مجموعات الغجر تعزى إلى التغيرات التي لامست تفاصيل حياة الغجر إثر اختلاطهم مع المجتمعات الأخرى عبر مراحل زمنية طويلة. ورغم مقاومتهم لتلك التغيرات، غير أن التبدلات بدت شاخصة في مجمل طقوسهم الحياتية وقلصت جزءاً من ثقافتهم. بالمقابل فإنهم ما زالوا محافظين على عاداتهم وقيمهم الاجتماعية والسلوكية إلى حد كبير، بعدما رفضوا وقاوموا المعايير الجديدة بشتى الوسائل والسبل.

أغلب محاولات توطين الغجر وترويض حياتهم وإجبارهم على الالتزام بإطار التكامل مع المجتمع الكبير، وصلت إلى نهايات مغلقة. ومنها محاولة ملكة النمسا ماريا تيريزا عام 1761 ومن بعدها جوزيف الثاني، بتنظيم الغجر والحد من تجوالهم والتحدث بلغتهم وممارسة صناعاتهم التقليدية، كما منعتهم من انتخاب رؤسائهم أو الزواج إن لم يكن لديهم وسيلة لكسب العيش، وأخضعت كذلك الرجال منهم لأداء الخدمة العسكرية وأجبرت أطفالهم على دخول المدارس. . المحاولة الأولى من نوعها في تاريخ الغجر خارج الهند.

تشارلز الثالث هو الآخر انتهج الأسلوب ذاته في القرن الثامن عشر، بعدما أصدر قراراً يقضي بأن يساق أبناء الغجر دون السادسة عشرة من أعمارهم من عوائلهم لغرض تعليمهم، كما منعهم من استخدام لغتهم الخاصة ومن تغيير سكناهم ومن التجوال بين القرى والمزارع.

وعن حملة الملكة ماريا تيريزا وصف لنا أحد الكتب تلك المأساة: «كان يوماً مرعباً بالنسبة إلى هذا الجنس من البشر، فقد ظهرت العربات التي يحرسها الجنود في المناطق التي يقطنها الغجر. بدأ الجنود بانتزاع الأطفال من أحضان أمهاتهم.. حتى الرضّع منهم، ثم تمّ تفريق الأزواج عن زوجاتهم. تمرغ الآباء تحت أقدام الجنود وتمسّك البعض بالعربات التي حملت أطفالهم، لكن الجنود ضربوهم بقسوة بكعوب البنادق والهراوات».

ومع نهايات القرن قبل الماضي حاول الأمير الهنغاري جوزيف هابزبرغ توطين الغجر ومد يد العون لهم ليعيشوا حياة مدنية، ورغم فشل المحاولة، فإن بعض الغجر جاءوا من أماكن نائية بغرض الالتحاق بتلك المحاولة وإنجاحها، وما زالت ذكرى الأمير ماثلة في قصص وحكايات الغجر باعتباره فارساً شجاعاً ورحيماً.

في النصف الاول من القرن العشرين، حاول الاتحاد السوفياتي إلزام الغجر بالاستقرار والتعليم، بعدما منحتهم السلطات المنازل المجاورة للمسارح الخاصة بهم، إلى جانب مدارس التدريب المهني. وقد تخلت السلطات عن تلك السياسة في ستينات القرن الماضي، إثر رفض الغجر محاولة التوطين والاستقرار. السلطات البريطانية هي الأخرى طلبت من الغجر إرسال أطفالهم إلى المدارس الابتدائية ابتداءً من عام 1908 ووضعت لها مناهج مناسبة لتعليم أبناء

الغجر. أما السويد فقد حاولت إنشاء مدارس متنقلة، لكن النتيجة لم تكن مرضية تماماً. إسبانيا أنشأت العديد من المدارس الخاصة بالغجر وتحت إشراف السلطة القضائية، وطوعت المناهج وفقاً للثقافة الغجرية.

ورغم تعدد الآراء حول مستوى حفاظ الغجر على وحدتهم الاجتماعية والثقافية، فإن تمسكهم بقانونهم الخاص حال دون انصهارهم - إلى حد كبير - في المجتمعات الكبيرة.. بالمقابل لا تقدم قوانين الغجر حلولاً بالنسبة لتنظيم العلاقات فيما بينهم، أو لعلاقتهم مع غير الغجر، إذ إنها تفرض عليهم الانخراط في القيم الجمعية، وتعكس في الوقت ذاته الإطار التقليدي الذي ينظم علاقات الغجر مع بعضهم، وهذا يعني أن التقاليد والأساطير في حياة الغجر ممتزجة مع بعضها. فقانون الغجر يمكن اعتباره مجموعة متكاملة من التقاليد المتوارثة التي تتضمن مظاهر الحياة.. بكل تفاصيلها الدقيقة. وثمة ممارسات حياتية محصورة بالغجر، رغم أنهم ينتقون من ثقافات الشعوب الأخرى ما يتفق مع تقاليدهم، وبهذا تأثرت ثقافتهم بكثير من قيم الشعوب التي مروا بها خلال ترحالهم، أو التي شاركوها الحياة. إلا أن العادات والقيم الحياتية والمظاهر الروحية لديهم ما زالت ماثلة تماماً بينهم، بغضّ النظر عن المسافات الزمنية التي مكثوا فيها مع المجتمعات الاخرى.. بل إن عدداً من الممارسات السائدة حالياً في بعض المجتمعات الإنسانية تنسب إليهم.

جهلُ الغجر بالكتابة وانعدام لغة مدوّنة خاصة بهم، أدّيا إلى ضياع المعاني الأصلية للقوانين التي توارثوها جيلاً إثر آخر، إذ

انتقلت تلك القوانين شفاهاً، الأمر الذي أدى إلى تغيير جذري في مضامينها ومعانيها. ويتمسك الغجر لغاية الآن بما تبقى لديهم من قوانين وشعائر وطقوس وقيم وأعراف بصورة صارمة، فهم يحيطونها بإطار من السرية لا يحق، وبأي شكل من الاشكال، أن يكشفوها لغير الغجر.

ولعل الأسرة هي الآصرة الاجتماعية الواضحة في قيم الغجر. وثمة ثلاثة أنواع من الرابطة الأسرية: الأسرة الأبويّة، الأسرة الأخوية، والأسرة ذات العلاقات الجديدة. وتتركز كل الروابط الأسرية على المرأة، فهي محور الرابطة الأسرية بكل تنوعها واختلافها، وتتمتع بمكانة محترمة، إذ يقطن الزوج عادة مع أهل زوجته، إضافة إلى أن الأطفال يحملون كنية الأم، ويتكلمون بلهجة والدتهم وليس والدهم، إذا كانا من جماعتين غجريتين مختلفتين، وهي سمة النظام الأمومي التي ما زالت قائمة لدى الكثير من القوميات الهندية لغاية الآن.

ولا يقتصر مفهوم العائلة على الرابطة الأسرية فحسب، بل يتسع ليشمل الأقارب.. ويتخذ مفهوم الأقارب مدى غير متوقع البتة، فهو يشمل المنضوين تحت سلّم العلاقات الأسرية مهما كانت بعيدة. ومن هذا المنطلق تعتبر العشيرة الوحدة الاجتماعية الأساسية بعد الأسرة مباشرة. والغجري محكوم بمجموعة من التقاليد والقيم والطقوس تحددها العشيرة، كذلك تحدد درجة قرابة الأفراد ضمن العشيرة الواحدة، نوعية التفاعل الضمني داخل هذا الاطار. وتجتمع العشيرة عادة في المناسبات الخاصة كحضور صفقة شراء العروس أو الزواج أو الأعياد.. وفي حالات الوفاة أو فضّ المنازعات.

ويسود بين الكثير من قبائل الغجر شكل بدائي من الحكم، إذ يتم انتخاب رئيس القبيلة، إضافة إلى أم القبيلة (بوري داي) وهي الحارسة للقيم الأخلاقية الخاصة بالقبيلة، وتستشار عادة في الأزمات، غير أن الرئيس المنتخب هو الذي يحدد مسار القبيلة والطرق التي ستسلكها، كذلك دوره الفعال في عقد الزواج. . ويعتبر العقد لاغياً إن لم يتم بحضوره. وغالباً ما يلعب الرئيس دور الوسيط بين أفراد القبيلة والسلطات المحلية. وتتراوح مدة الرئاسة سبع سنوات، وقد تمتد لتغدو مدى الحياة في حال تجديد انتخابه. وللرئيس سلطات واسعة ضمن البنية الاجتماعية للقبيلة، فهو الذي يتحكم في ممتلكات القبيلة ويقضي في النزاعات.

إجراءات محاكم الغجر سرية للغاية، ولا يشارك فيها إلا كبار السن. . أما الجرائم التي تقضي بها تلك المحاكم فتتراوح بين السرقة والخيانة الزوجية وتناول الطعام من طبق لامسته سيدة بطرف ثوبها، وتناول لحم الخيول والكذب في وجود ميت. وتتمايز العقوبات وفقاً للتهم، ولعل الإبعاد عن القبيلة هي العقوبة الأقصى، في حين تلجأ بعض القبائل إلى الحكم بالموت، وذلك بمنح المذنب عشباً ساماً بغرض قتله.

المعتقدات الدينية

تتباين المعتقدات الدينية بين جماعات الغجر بتعدد تلك الجماعات وتشتتها، غير أن لديهم تراكمات من المعتقدات الدينية القديمة تتشابك حيناً وتتعارض حيناً آخر وفقاً لتفسير كل مجموعة وما تضيفه أو تحذفه أو تحوره بما يناسب نظم حياتها ومتطلبات

الديانات التي تبنّوها ظاهرياً في الدول التي مكثوا فيها أو مروا بها. فالديانة لدى الغجر لا تعدو كونها إلا أداة للتقرب من المجتمعات التي يحيون بينها.. ووسيلة للتكيف مع تفاصيل حياتها، خاصة الروحية.

وتتلخص عقيدة الغجر الدينية بالهين، الأول يدعى «دل» وهو إله السماء والنار، والآخر يدعى «بينغ» وهو عنصر الشر. ويتنافس الإلهان بصورة متواصلة للفوز في رهان كسب الإنسان واستمالته. ولم يظهر الإله «دل» وحده، بل ظهر معه نظيره «بينغ» بعد وجود الأرض.. التي كانت قبلهما بمسافة زمنية ليست بالقصيرة، لكنهما تنافسا معاً في خلق الإنسان، فصنع الإله «دل» تمثالين سرعان ما حوّلهما الإله «بينغ» إلى رجل وامرأة، ونفخ فيهما الكلمة ليولد كل من ادم وحواء تظللهما شجرة كمثرى وليس التفاح.[1]

كان آدم وحواء يضيئان الكون لكنهما فقدا توهجهما إثر سقوطهما في خطيئة تناول فاكهة الكمثرى، لذا كان من الضروري على الإلهين خلق كوكبين سماويين ينيران الكون المعتم.. فولدت الشمس ثم القمر، لذا فإن للشمس دوراً مهماً في معتقدات الغجر الدينية، اذ تذكر عبادة الشمس أحياناً بين جماعات الغجر، وهي بالتأكيد أقل أهمية من القمر.. الذي يحكم دورات حياة الغجر في تبدلاته وتغيراته الشكلية، إضافة إلى أنه جالب للحظ والسعادة في معتقداتهم.

---

(1) يظهر تأثير الديانة المانوية جلياً في تعاون الإلهين «دل» و«بينغ» في خلق الإنسان ضمن المعتقدات الدينية لدى الغجر.

وإلى جانب الشمس والقمر، تتمحور معتقدات الغجر حول النجوم أيضاً، إذ لكل فرد غجري نجمة في السماء، وان سقوط شهاب يعني موت غجري في مكان ما من هذا العالم.

اعتنق الغجر في العصور الحديثة العديد من الديانات ومنها الإسلام في الدول الإسلامية، والمسيحية، خاصة أولئك الذين يقيمون في أوروبا، حيث يبدون اهتماماً متزايداً بطقوس المعمودية، ويحرصون على أداء مناسك حج كنيسة القديسة مريم الغجرية أو مريم المصرية أو مريم الكالية (اي السوداء) كما يطلقون عليها، يومي 24 و25 من شهر أيار (مايو) كل عام.

وعلاقة الغجر بالديانة تختلف عن الشعوب الأخرى، خاصة بعد أن مزجوا بعض معتقداتهم الدينية القديمة مع التقاليد الدينية لدى بقية الديانات. فالغجري حين يتكلم عن الخالق لا يمكن لأحد أن يعرف أي إله يقصد تحديداً، معتقداً أن الله يساعده في التجارة، ويدعو القديسين إلى مساعدته في سرقة الخيول وبيعها.

ويبدي الغجر نزوعاً واضحاً لتقديس الأنثى.. إلى الدرجة التي تصل إلى عبادة القديسة سارة الغجرية أو سارة السوداء.. وهي قديسة غجرية عاشت على شواطئ نهر الرون مع بقية أفراد جماعتها، واشتهرت بمعرفة الأسرار. وذات ليلة حلمت أن القديسات الثلاث اللواتي كنّ حاضرات خلال صلب السيد المسيح، سيأتين على متن قارب وأن عليها مساعدتهن. رأت سارة بعدها القديسات القادمات على متن قارب صغير تتقاذفه أمواج البحر الهائج، وكاد القارب يغرق فرمت بردائها على الأمواج ليغدو بمثابة المعبر الآمن نحو الشاطئ. شكرت القديسات سارة وقمن بتعميدها كقديسة، لتقوم

تالياً بدورها بنشر المسيحية بين أبناء قومها.

عبادة القديسة سارة السوداء من المعتقدات المهمة للغاية لدى الغجر، كما أن الحجيج إليها يعتبر طقساً دينياً في غاية الضرورة، ولا يؤدي فيه الغجر أي شعائر سوى السير في ردهات المعبد حفاة وحاسري الرأس. ويسمح للحجاج بلمس تمثال سارة الكالية (السوداء) أو تقبيل أذيال ثياب التمثال. وتشمل شعائر الحج أيضاً السير نحو البحر والغطس في مياهه ضمن احتفال صاخب. ولا يزال الغجر يقدسون سارة الكالية، إذ يتصدر تمثالها بيوت الغجر وعرباتهم وأماكن عملهم.

وما يتعلق بالآخرة فلدى الغجر عدد من المفاهيم الخاصة لما بعد الحياة، إذ يعتقدون بأن الأموات يسلكون ذات طريق الشمس خلال غروبها، للهبوط إلى الجحيم معتلين ديكين. . وتستغرق الرحلة نحو شهرين للوصول إلى نقطة النور المتوهجة في آخر النفق المعتم والمتمثلة بقلعة الامبراطور الأسود.

إلى جانب المعتقدات الدينية القديمة لدى الغجر والديانات التي اعتنقوها، ثمة محرمات عديدة تؤطر تفاصيل حياتهم، إذ يسود بينهم اعتقاد بأن المرأة تمثل مصدراً للنجاسة، فليس من المستحسن تناول أي طعام أو شراب تخطته امراة، كذلك ليس على المرأة ان تجتاز رجلاً وهو جالس، حتى لو كان زوجها. كما تعتبر الفترة الزمنية التي تتلو الولادة خطرة، إذ يحرص الغجر على التخلص من الاشياء التي استخدمتها المرأة خلال فترة الولادة، كالأطباق والأكواب والملاعق لتحرق جميعها بعد الولادة. بالمقابل لا تلمس المرأة بعد فترة الولادة الطعام الذي يعد للعائلة الكبيرة، ويفرض بعض جماعات

الغجر على المرأة أن ترتدي قفازاً لمدة شهر، وأن لا تلمس العجين عاماً كاملاً.

الحب

الغجر.. قوم تغلي مشاعرهم بالعاطفة، إلا أن تلك العاطفة تؤطرها قواعد محددة سلفاً وغالباً ما تتصف بالحدة. فالحب تقليد في غاية الأهمية في حياة الغجر، والفتاة التي وهبت نفسها بدافع الحب يكون الحكم عليها، وفقاً لقوانين الجماعة، مخففاً إلى حد كبير، في حين تطرد الفتيات الغجريات اللواتي يمارسن البغاء من القبيلة، ويبقين منبوذات. ففقدان البكارة ليس بأهمية البغاء، غير أنها تغدو قابلة للمساومات خلال عقد صفقات الزواج.

ولدى جماعات معينة من الغجر لا يحق للشباب في سن الزواج اختيار الشريك بأنفسهم، بل يسعى الوالدان لاختيار الشريك إثر تحر واسع ومكثف، دون فرض ذلك الخيار على الابناء.

وللسحر دور بالغ الأهمية في مسار العشق لدى الغجر. فحين يرغب فتى في فتاة ما، يلتقط ورقة شجرة ويلطخها بدم ساعده وهو يردد اسمه الحقيقي واسم الفتاة، ثم يرمي الورقة في النهر. أما الفتاة التي ترغب في الحصول على إعجاب فتى، فتصنع تمثالاً صغيراً من عجينة تحوي خصلات من شعر الذي تحب، ولعابه ودمه وأظافره، وتدفنه عند تقاطع طرق، حين يكون القمر في ربعه الأول، ثم تتبول على الحفرة وهي تردد اسم العشيق الذي تهوى.

ولدى جماعات غجرية أخرى تضيف الفتاة إلى العجينة بعض بذور السفرجل وقطرات من دمها، ثم تطهو العجينة وتمضعها بعد

ذلك، وهي تردد: «امضغُ دمي، وستولد لنا حياة جديدة نعيشها معاً». بينما تضع فتيات من جماعات غجرية أخرى، بذور التفاح بعد حرقها ومزجها بدم الحيض، في طعام الفتى ليقع في غرامهن. وفي حال أن الفتاة لم تختر حبيباً بعد من بين المعجبين، فإنها تصنع ثلاث كرات من العجين وتدوّن عليها اسماء المعجبين وترميها في ماء مغلي، .ومع طوفان أول كرة فوق سطح الماء سيكون اسم المعجب المدوّن عليها. . هو الحبيب المختار.

وللشبان طقوس أيضاً فيما يتعلق بلفت أنظار الحبيبة والتقرب إليها، ومنها أنه يسرق ثلاث شعرات من الفتاة التي يحب ويدفنها في شق شجرة لتنمو سوية، وبذلك يحصل على مراده.

الزواج

الحب. . هو الآصرة الأهم في العلاقة الزوجية لدى الغجر، وثمة أنواع عدة من الزواج الغجري ومنها: الخطف، واتفاق الأطراف كافة. وما زالت الطريقتان تمارسان لغاية اليوم ولكن بصورة رمزية، حيث يتم الاتفاق بين الاطراف المعنية بالزواج، ويحدد سلفاً قيمة المهر. . ويعني ثمن شراء العروس، ويدفع عادة قبل إتمام صفقة الزواج، ولا يُعلن عنه إلا بعد تسلّمه.

الزواج عن طريق الخطف هو الآخر ما زال سارياً لدى جماعات واسعة من الغجر، ولكن بصورة رمزية، إذ يخطف الفتى محبوبته بمساعدة أقرب أصدقائه، ويختفيان لأيام عدة، ما يلبثان ان يعودا إلى المخيم، لتستكمل إجراءات الزواج، ويتم الإعلان عنه رسمياً بين أفراد الجماعة.

الزواج التقليدي هو الأكثر شيوعاً بين جماعات الغجر، ويتم من خلال طقوس متوارثة تبدأ بمدح أهل العروس لمزايا ابنتهم، في محاولة لرفع قيمة مهرها، وحين يتم الاتفاق يعلن الأمر على القبيلة بأسرها، لتبدأ الاحتفالات المصاحبة للزواج الموازية لثراء العائلة ومكانتها الاجتماعية. وتعتبر حفلات الزواج هي الحدث الأبرز في حياة الغجر، إذ تركن الأحقاد والمشاجرات العائلية خلال أيام الاحتفالات، وهي أشبه بهدنة مقدسة على الجميع احترامها.

طقوس الزواج تختلف بين جماعات الغجر، غير أن دور رئيس الجماعة يبقى هو الثابت باعتباره الراعي الأول للزيجة، والمشرف على الطقوس المصاحبة للاحتفالات، حيث يكسر قطعة خبز إلى قطعتين ويضع الملح عليهما ويقدمهما إلى العروسين، اللذين يتبادلان القطعتين قبل تناولهما.

طقس آخر مرتبط بزواج الغجر ويتمثل بإفراغ محتويات إناء من الفخار مملوء بالحبوب على رأس العروسين، ثم يكسر الإناء بقوة على الأرض، ويحتفظ العريس بعروة الإناء، بينما يتقاسم الحاضرون القطع المهشمة كدليل على الحظ السعيد، إلى جانب طقوس وشعائر أخرى ترافق احتفالات الزواج.

ثمة زيجات لأطفال تقرر من قبل العوائل الغجرية لسبب ما، وتقتصر احتفالات تلك الزيجات بطقوس بسيطة ومحددة. ويبقى الأطفال لدى ذويهم لغاية سن البلوغ. . حينها تتم الزيجة الفعلية وتبدأ الاحتفالات المعروفة لدى الغجر.

ويؤكد زواج الغجر عزلتهم، فمعظم الزيجات تكون بين أقرب الأقرباء، خاصة أبناء العمومة، وليس من المفضل زواج الابنة

الصغرى قبل الكبرى. وينتشر لدى غجر أوروبا ظاهرة اختبار شجاعة العريس المتقدم. ومن الزيجات المعروفة عند الغجر، زواج الدم، حيث يُجرح معصما العروسين ويلصقان أحدهما بالآخر لتختلط الدماء. ووجدت لدى بعض جماعات الغجر ظاهرة تعدد الزوجات، كذلك الجمع بين شقيقتين في زيجة واحدة.

وتقع مسؤولية الأسرة لدى أغلب جماعات الغجر على الزوجة، فهي تعمل على إعالة الأسرة مادياً، ويعتمد دخل الأسرة على ما تجنيه الزوجة من الأعمال التي تمارسها كالرقص وقراءة الطالع والاستجداء أو السرقة.

ولا تحبذ جماعات الغجر زواج الغجري أو الغجرية من غير الغجر، وتعتبره من الأفعال المشينة، إذ تطرد المرأة الغجرية من الجماعة، في حين تكون العقوبة مخففة بالنسبة للغجري الذي اقترن بامرأة غير غجرية، التي تقابل بالكراهية والازدراء والتهميش من قبل أفراد الجماعة على مدى سنوات طويلة.

الطلاق

ظاهرة الطلاق هي الأخرى موجودة عند الغجر، ولكن بنسب ضئيلة للغاية، حتى تكاد لا تذكر، إذ تراعى العلاقة الزوجية بصورة صارمة وليس ما يدحض الثقة المتبادلة بين الزوجين سوى الخيانة الزوجية.. والتي تكون عقوبتها حلق شعر المرأة الخائنة والازدراء من قبل أفراد الجماعة، ولعل أقل عقوبة تنالها الزوجة الخائنة لمجرد إيماءة جنسية، هي الضرب والهجر لمدد متفاوتة تبعاً للفعل.

العقوبة الأشد تتمثل بقطع الأذن أو جدع الأنف.. غير أن تلك العقوبة انحسرت تماماً في الحاضر القائم.

ويلجأ الغجري إذا حامت شكوكه حول إخلاص زوجته، إلى السحر، حيث يجبر زوجته على السير حافية القدمين على أقراص مصنوعة من خشب الزيزفون رسمت عليها رموز بدائية، كذلك يعمد إلى إخفاء تمائم تحت وسادة زوجته، فإن رقدت وغفت طويلاً فتكون غير مذنبة، أما إذا سهدت، فيعني ذلك أنها خانت العلاقة الزوجية.

وفي حال الطلاق، على الزوجة أن تمثل أمام مجلس الجماعة، وعلى والدها، أن يدفع قيمة بيعها (مهرها) محتفظاً بحصة صغيرة كتعويض على فقدان ابنته لبكارتها، في حال كانت مخطئة، أما إذا ثبت العكس فستكون قيمة المهر والابنة من حصة الأب.

ويأتي عقم الزوجة من أولويات أسباب الطلاق، كذلك الازمات الاقتصادية، وتنافر الزوجة أو الزوج مع عائلة الشريك، وتعدد الزوجات لدى الجماعات التي أعلنت إسلامها، إلى جانب أسباب أخرى متعددة.

الخصوبة والولادة

العقم.. هو الحظ الاسوأ الذي يمكن أن تصاب به المرأة الغجرية، ويعزوه الغجر إلى سحر أسود، أو إلى علاقة المرأة مع الجان. وغالباً ما تتعرض المرأة العاقر للاحتقار وتغدو في أدنى مرتبة اجتماعية بين نساء المجموعة، لهذا تندر حالات الإجهاض لدى الغجر بسبب حاجتهم الماسة إلى الذرية وعشقهم غير المحدود للأطفال، وتبدأ الطقوس الأولى لمعرفة ما إذا كانت المرأة حاملاً وذلك باللجوء إلى العرافة التي ترمي بدورها حبات الذرة (أو الكتان

لدى جماعات أخرى) على طبل، فإن لامست الحبات بعضها فهذا يعني أن المرأة حامل.

ولدى غجر ألمانيا أسلوب مغاير تماماً، حيث تلجأ العرافة إلى كسر بيضة في إناء ممتلئ بالماء، فإن طافت محتويات البيضة على سطح الماء، يعني أن المرأة حامل، وإن انفصل البياض فستلد ابناً، وإن امتزجا فستلد بنتاً.

وسرعان ما تعلن المرأة لنساء الجماعة عن حملها حين تتأكد من ذلك فوراً، وتحظى برعاية متميزة ابتداءً من تلك اللحظة، وتوضع الترتيبات الأولية للحدث، حيث توضع صور لأمراء وأميرات في غاية الروعة والجمال في عربة أو غرفة المرأة الحامل، بعد استعارتها من رئيس الجماعة، إذ إن تلك الصور تعود للجماعة برمّتها، وتتمّ استعارتها للنساء في فترة حملهن.

ولا تتوقف المرأة الغجرية عن العمل في فترة الحمل ولغاية الإحساس بآلام المخاض، حيث تنادي قريباتها لغرض إعانتها، وتبدأ طقوس الولادة بحل كل العقد الموجودة في ملابس المرأة قبيل آلام المخاض الأخيرة، اعتقاداً منهم أن ذلك يمنع انعقاد الحبل السري عند الولادة.

وخلال عملية الوضع يقتصر الحضور على والدة المرأة، إضافة إلى المرأة المسؤولة عن نساء الجماعة (فوري داي) التي تتلو التعاويذ أو توقد النار أمام الخيمة لطرد العفاريت والجان.

وتتوشج مع الولادة العديد من الطقوس، منها أن على المرأة الغجرية الحامل أن تلد خارج خيمتها أو عربتها، وقد تنصب خيمة

خاصة لذلك على حواف مقر إقامة الجماعة، حيث تعتبر المرأة التي أنجبت حديثاً نجسة ويفرض عليها العزل الذي يستمر في حدود الشهر الأول بعد الولادة. وتنتدّ هذه المدة لدى بعض الجماعات الغجرية إلى شهر ونصف، إذ لا يمكن للمرأة أن تلمس الطعام الخاص بالجماعة، وتنتهي فترة العزل بعماد المولود لتحرق بعدها ملابس المرأة وترمى بعيداً كل الأدوات التي استخدمتها خلال فترة العزل.

ويتشاءم بعض الغجر بشدة من صنع ملابس الطفل قبل ولادته، لذا يغطى الطفل المولود بقطعة من الأقمشة أو الملابس، ولا يرتدي الملابس إلا بعد مرور 10 أيام على ولادته، حيث تقوم النساء القريبات بغسل الطفل المولود في ماء دافىء ودهنه بزيت الزيتون ودلك أطرافه مدة أربعين يوماً بشكل متواصل. في حين يغسل غجر بريطانيا وألمانيا الطفل في ماء بارد غرف تواً من مجرىً مائي.

عماد المولود الغجري يتبلور بتغطيسه في ماء جار. ويعتبر العماد لدى الغجر في غاية الأهمية، ويتمّ بحضور العراب والعرابة (الوالدين الفخريين للطفل) وهما أول من يلمس الطفل بعد عماده. ويرافق العماد للغجر الذين أعلنوا إسلامهم في الدول الإسلامية، الختان.. في حين يتم عماد الطفل ثانية وفقاً للديانة المسيحية التي اعتنقها الغجر، بعدها يمنح الطفل الاسم السري، حيث تهمس الأم بالاسم السري في لحظة الولادة للمرة الأولى، ويعاد الهمس بالاسم ذاته حينما يبلغ سن الرشد، وذلك لخداع العفاريت وتضليلها عن الهوية الحقيقية للطفل وإبطال سلطتها عليه.

الموت والدفن

يشترك الغجر بتقاليد دفن موتاهم، رغم بعض الاختلافات البسيطة في التفاصيل، وهي تعكس ثقافة وقيم الغجر أولاً.. وتأثرهم بثقافات الشعوب التي عاشوا معها أو لامسوا حضارتها، إذ يتم تناول الشراب بعد الدفن مباشرة، أو تناول وجبة العشاء الاخيرة بجوار القبر بعد طقوس الدفن مباشرة، ويترك جزء من العشاء لروح المتوفى.. وهي طقوس مشابهة لتلك التي يمارسها الأرثوذوكس.

كذلك ثمة ظاهرة أخرى تنتشر بين قبائل الغجر، وتتمثل بالحرص على إكساء الميت أفضل ملابسه وتزيينه ليكون مستعداً لاستقبال ذويه وأصدقائه قبل رحلته إلى الجانب الآخر من الحياة، كما يعتقدون، علماً أن جماعات أخرى من الغجر تحرص على إحراق جثة المتوفى في مفترق طرق بعد تكفينه. وكان غجر بريطانيا قبل القرن الماضي يحرقون موتاهم، إذ تجهز أدوات المتوفى وعربته وأمتعته لحرقها معه، خشية ـ وفقاً لمعتقداتهم ـ بأن الميت سوف يعود مجدداً إلى الحياة على شكل شبح، إن لم يتخلصوا منه ومن جميع متعلقاته.

وعادة لا يموت الغجري في فراشه، فهي فعلة لا تليق به. وينقل المحتضر وهو في النزع الأخير، خارج المنزل أو الخيمة، ليكون مستعداً للانتقال إلى عالم الآخرة. وتبدأ طقوس الموت أولاً بإعلان الوفاة من قبل الشهود، وهم من أبناء العائلة والأقارب.. ثم تبدأ العائلة بالنواح وإبداء حالة الحزن والفراق. وقد تستمر حالات الحزن والصراخ حتى صباح اليوم التالي، وغالباً ما يتحول الأنين والعويل إلى غناء حزين ورتيب.

غسل الميت وإكساؤه بأفضل ملابسه، هما الخطوة التالية، ويوضع في التابوت إلى جوار معدّاته التي بالإمكان الاستفادة منها في الرحلة التي سيقطعها إلى العالم الآخر، كالقيثارة أو الكمان وبعض الأشواك والملاعق. ويُحمل الميت على نعش وهو في طريقه إلى المقبرة، وعادة يكون النعش من دون غطاء ويعرض في تقاطع الطرق.

دفنُ الميت لدى الغجر قد يكون شبيهاً بالدفن لدى ديانة المجتمعات التي يعيشون معها، غير أن الفحوى الأساسية هي غجرية في الغالب، إذ ترمى حفنة من التراب على التابوت مرفقة بقطع من النقود الذهبية، ويرش الماء أو الجعة أو النبيذ بعد شرب نخب الميت، وتعزف الألحان الغجرية مع إنزال التابوت إلى القبر، في حين يوزع أحد أفراد العائلة المقربين النقود على الشهود. وعادة ما تمكث زوجة المتوفى دقائق عدة في حفرة القبر قبل الدفن.

وثمة طقوس خاصة مختصرة على جماعات من الغجر، وتتبلور في كسر خنصر الميت ويوضع معه خيط أحمر تربط فيه قطعة من الفضة، قبل إنزاله إلى القبر، ليتمكن من دفع أجرة سفره إلى عالم الأموات، كما يعتقدون، بينما يغرز غجر الكاليدرس إبرة طويلة في قلب الميت للتأكد من الوفاة، كذلك للحماية من الأشباح. وتضع بعض جماعات الغجر حزمة من الشوك على القبر لمنع الميت من الخروج، أو استخدام حجارة ثقيلة للغرض ذاته.

ويتمّ التخلص من متعلّقات المتوفى إثر الدفن مباشرة. . وترمى بعيداً، وتصل الحالة بعض الأحيان، إلى حصان الميت وعربته

أيضاً، فلا يمكن وراثة متعلقات المتوفى من قبل أفراد عائلته الكبيرة بأية صورة من الصور.

وغالباً ما يتم نسيان القبر مباشرة بعد الدفن لدى أغلب جماعات الغجر، سوى جماعة (سنتي) التي تعمد لزيارة قبور موتاها في الأعياد والمناسبات الدينية، ويعود السبب إلى حياة الترحال الدائم والتبدلات الجغرافية المفاجئة لحياتهم.

وتتشابه شعائر دفن رؤساء الجماعات إلى حد كبير، غير أنها متخمة بالرموز الاستعراضية وفقاً لمكانة المتوفى، اذ يتم التكفين بطريقة سرية للغاية ولا يجوز الحضور لغير أبناء العائلة، كذلك يتم طلاء العربة التي تحمل النعش باللون الأبيض والإعلان عن أن المتوفى سيقوم برحلة عكسية في دورة الحياة. وتطلق تراتيل ارتجالية خلال مسيرة النعش باتجاه المقبرة، تعدد فيها صفات المتوفى ومناقبه وحسناته. . إلى جانب إعلان الألم والحزن لفراقه.

السلوك

أفضّل أن أكون مطرقة بدلاً من مسمار..
أجل أفضّل،
لو كنت أستطيع لفضّلت.

أغنية غجرية

قاوم الغجر كل محاولات الانصهار والتفتت على مدار الأزمنة، ابتداءً من عمليات الاستيطان الأولى ونزع الهوية. . ولغاية العنف المتصاعد ضدهم حاضراً. والغجري بطبعه كاذب محترف، وبإمكانه أن يبتدع أية قصة باحتراف قلّ نظيره، ولكن بقصد الهروب من واقعه المؤلم وتقديم المتعة لسامعيه، إذ تبلور عزلة الغجري إحدى سمات توحده وتفرده.

الغجر من الشعوب غير المتطلبة في الطعام، وكثيراً ما يعتمدون في طعامهم على المنتجات الطبيعية والثمار البرية. ولعل حساء الخضراوات هو بمثابة الوجبة الأساسية لديهم. . كما يفضلون أيضاً لحوم الطيور والأسماك، ويحرمون بشكل صارم لحوم الكلاب والقطط. بالمقابل يعتبر طبق القنفذ من الوجبات المفضلة لديهم، وهي من أطعمة الأعياد والمناسبات. وتطهى بفرن فخاري مدفون تحت الأرض، بعدما يغلف القنفذ بطبقة من الطين. كما استخدموا الأعشاب المجففة كأدوية. وقد عرفوا البنسيلين بصورته البدائية لمعالجة الجروح وبعض الإصابات.

شراب الغجر مقتصر في الأيام العادية على الماء العذب،

ويستعاض عنه بالنبيذ أو الجعة في الأفراح والمناسبات، أما الشاي فهو المشروب الأكثر شيوعاً لديهم في الأوقات الموزعة بين فترات الطعام. ويقترن الشاي عادة مع التبغ، وهو من المتع اليومية لديهم، إذ إن الجميع يشترك في هذه المتعة، العجائز والصغار معاً. . وفي حال صعوبة الحصول على التبغ فإنهم يصنعون تبغهم الجاف من أوراق الأشجار الجافة وبعض الأعشاب المنتقاة، ويكون عادة خليطاً أكثر تركيزاً من التبغ العادي، وتقضي العجائز يومهن بتدخين غلايينهن الخشبية المصنوعة بأيديهن.

الغجر يكرهون الماء باعتباره المسبب الاول لكوارثهم، خاصة مع تنقلاتهم المتواصلة مع عرباتهم وحيواناتهم. ويعتبر من الممتلكات الثمينة لديهم في الوقت ذاته. كما أنهم يخشون البحر لأنه يحد من استمرار مسيرتهم، لذا فإن نسبة قليلة للغاية من الغجر امتهنت صيد الأسماك، في حين يصعُب أن تجد بحاراً غجرياً. ويستخدم الغجر الماء لإرواء حيواناتهم أولاً ثم إرواء البشر. وتستخدم البقية المتبقية لإعداد الطعام. ويمكن اعتبار إهدار الماء في الاستحمام أو غسل الملابس بمثابة جريمة، لهذا فإنهم يكرهون الاستحمام. . وقد يمر عام كامل دون أن يستحم الغجري. ويعمد بعضهم لاستخدام بعض أوراق الشجر عوضاً عن الماء. كما انهم لا يستخدمون الصابون أو مساحيق الغسيل مطلقاً، ما عدا بعض الأسر التي تعيش في المدن الكبيرة أو على حدودها، أو تلك التي ارتبطت اقتصادياً واجتماعياً بحياة المدينة.

وللابتعاد عن خطر الماء، يقيم الغجر مخيماتهم في الأماكن الجافة وبعيداً عن الأنهار أو شواطئ البحار. ويفسر المؤرخون خشية

الغجر من البحر بسبب الفجوة التي تفصلهم عن المياه، خاصة مع ندرتها في الصحارى والسهول، وصعوبة حملها ونقلها، إلا بكميات قليلة تكفي الحد الأدنى من استخدامها.

وللغجر منظومة من العلامات السرية تسمى «باترين» وتستند إلى مواد وعلامات ترسم أو تشكل من المواد المستخدمة كقطع الخشب الصغيرة وريش الطيور وبقايا الطعام. وتترك الجماعات الغجرية عادة وراءها علامات لجماعات أخرى قد تأتي بعدها إلى المكان ذاته، بحيث يتم وضع المواد المستخدمة للإشارة إلى دلالة معينة.

ولكل جماعة علامات خاصة بها، وتعتبر سرية، ويحملها رئيس الجماعة في عصاه. ولتلك العلامات استخدامات يومية، ترسم على واجهات المنازل لتقديم المساعدة للجماعات الغجرية التي تأتي لاحقاً.. وتتبلور عادة حول وضع القرية المادي وطريقة تعامل سكانها مع الغجر، كذلك تدوّن بعض الجماعات الحالة الاجتماعية لسكان المنازل لتستطيع الجماعة القادمة ممارسة قراءة الطالع للعوائل وهي تملك من المعلومات ما يكفيها لإثارة الدهشة.

وسائل النقل

رحلات الغجر الأولى كانت سيراً على الأقدام، ولم تظهر العربات أو البيوت المتنقلة في حياتهم إلا في العقود القليلة الماضية، خاصة إثر حصولهم على الحيوانات التي كانت تمثل واسطة النقل الوحيدة. ومع ممارسة الغجر الأعمال التجارية اقتنى بعضهم العربات الثقيلة التي تجرها الثيران.. وساهمت في حل مشاكل السكن التي كانوا يعانون منها، إذ استُخدمت كسكن ووسيلة

نقل في آن. وتم الاستعاضة بالخيول بدلاً عن الثيران في وقت لاحق، كما أصبحت تلك العربات أقل وزناً، خاصة مع استخدام العجلات المطاطية.

ويعود تاريخ استخدام الغجر للعربات ـ المنازل المتنقلة في بدايات القرن الماضي، إلا أنها ظلت مقتصرة على الأسر الغنية منهم، وما لبثت أن غدت سمة متلازمة مع الغجر، حتى أولئك المستقرون على أطراف المدن الكبرى. وفي بريطانيا يستخدم الغجر العربات المزركشة وتلك المتخمة برسوم رحلاتهم بين المدن والأحداث الأبرز التي صادفت رحلتهم.

ومنذ مطلع القرن قبل الماضي توزعت العربات إلى خمسة أنواع، بعدما ظلت محددة بنوع واحد. وفي فترة النازية كانت الفرق الخاصة تحرق عوائل كاملة من الغجر وهي بداخل عرباتها الخشبية.

وفي الثلاثينات صمّم الغجر نوعاً آخر من العربات. . وما زالت تلك العربات حاضرة لغاية الآن في حياة الغجر.

والعربة هي عبارة عن غرفة تضم احتياجات العائلة، وغالباً ما تجرها الخيول. . وسرعان ما استبدلت الخيول بماكنات السيارات التي غيرت الكثير من عادات الغجر وقيمهم.

وعودة سريعة إلى الماضي، عاش الغجر في بداية الأمر في الخيم، ثم تطورت الخيمة الصغيرة إلى أخرى كبيرة تضم الأسرة بكاملها مع أثاثها البسيط، فقد ظلت فكرة الرحيل في مخيلة الغجر حتى اولئك المقيمين في مساكن حديثة، إذ إن ذهنية الرحيل المتوارثة لديهم عبر الأجيال سببت لهم عقدة الخوف من الأماكن

المغلقة، كما أنهم استعاضوا عن الكثير من الأثاث بالحقائب لتمنحهم الإحساس بأنهم على وشك الرحيل.

انتقل الغجر من الخيم إلى الأكواخ الطينية، ومنهم من أقام في جحور تحت الأرض، خاصة في بعض مناطق آسيا الوسطى، أو في كهوف كما هو الحال في البلقان وإسبانيا. . وهي شبيهة ببيوت النحل المتراصة، حيث يعيش فيها آلاف الغجر مع حيواناتهم. وقد استغلت إسبانيا هذه الظاهرة لأغراض سياحية.

السرقة

تتمايز رؤية الغجر عن غيرهم لمفهوم السرقة، إذ يعتبر الغجر أن كل الأشياء الموجودة في الطبيعة هي ملك الخالق وحده وللإنسانية جمعاء، وبالتالي ليس من حق أحد ان يتهمهم بالسرقة، خاصة وأنهم تعودوا خلال رحلاتهم المتواصلة على التقاط كل شيء يمكن تناوله أو الاستفادة منه.

وثمة جماعات غجرية تمارس السرقة كمهنة مثل بقية المهن للحصول على ما يلزمهم للاستمرار في البقاء. وبهذا تغدو السرقة سلوكاً اجتماعياً يحترفه معظم أفراد الجماعة وينتقل بينهم عبر الأجيال.

ولا يشعر الغجر بالذنب جرّاء سرقة الغير، بعدما استندوا إلى مفاهيم خاصة بهم تعتمد على الحصول على الأشياء التي يصادفونها في طريقهم. ومع احتكاكهم بالشعوب الأخرى عرفوا أن سرقة الغير أمر يعاقب عليه القانون قبل أن يكون مستهجناً.

وإلى جانب السرقة هناك أعمال النصب والاحتيال التي تشتهر

بها بعض الجماعات الغجرية. ويحاول الغجر تبرير ذلك السلوك بعزوه إلى الظروف القاسية التي أحاطت حياتهم على مدى العصور. فهم لا يسرقون الا ما يحتاجون اليه، ولا يعتبر الغجري سارقاً لدى جماعته إلا إذا سرق ما هو ليس في حاجة إليه، أو حين يسرق مَن هو أفقر منه.. ويعتبرها الغجر جريمة يعاقب عليها الجاني.

وتنتشر ظاهرة السرقة بين بعض جماعات الغجر دون غيرها. فتلك الجماعات تمتهن السرقة كمفصل اساسي في حياتها، في حين تمتهن جماعات أخرى السرقة، إلى جانب مهن أخرى يمارسونها.

ضغوط الحياة الحديثة التي حاصرت حياة الغجر وابتعادهم عن محور الحراك الاجتماعي، دفعتهم إلى ممارسة السرقة وأعمال الاحتيال الأخرى، مستخدمين ذكاءهم وفطرتهم.. عدا جيش المتسولين الذين يجوبون شوارع المدن والقرى على حد سواء.

وتبلورت في الذاكرة الجمعية صور سيئة عن الغجر، وشاعت الكثير من الحكايات عنهم.. تلك التي ارتبطت بالسرقة والاحتيال والغش.

الزينة

للغجر طقوسهم الخاصة في التزيين، وتعود تلك الطقوس بصورة وأخرى إلى أوائل الغجر الذين نزحوا من الهند. فقد احتفظوا ببعض ملابسهم وزينتهم لغاية وصولهم إلى أوروبا، بعدما ارتدوا الملابس المشابهة للقرويين، مع إضافة بعض الألوان الصارخة والأقمشة المطرزة والاكسسوارات المتوشحة مع تعاويذهم ورؤيتهم الخاصة للجمال. ويفسر بعض العلماء الأنثربولوجيين تخلّي النساء

الغجريات عن الساري (الزي الهندي التقليدي) كونه غير متلائم مع نساء رُحَّل يقطعن مسافات طويلة سيراً على الأقدام.

تُخفي المرأة الغجرية سيقانها.. لكنها لا تعتبر الأثداء من الأعضاء الجنسية (وفقاً لمبادئ حياة الغجر) وغالباً ما تعرض ثديها على الملأ حين ترضع أطفالها.

بالمقابل لم يستخدم الغجر الأحذية إلا في النصف الثاني من القرن الماضي، ويشعر زعماء الغجر بميل واضح نحو الأزياء المزركشة المليئة بالأزرار اللماعة والشارات المذهبة والجواهر المزيفة. وتكتمل تلك الزينة مع اكسسورات يصنعها الغجر عادة من العملات المعدنية القديمة، إلى جانب ساعات الجيب والأقراط الطويلة المتدلية لغاية الأكتاف. وتعتبر تلك الزينة بمثابة مدخرات الأسرة، خاصة مع ظروف الترحال المتواصل.

ويبلور الوشم، إلى جانب الاكسسوارات، سمة جمالية أخرى، اضافة إلى كونه تعويذة سحرية ضد اللعنات وطرد الجن والحد من الحسد وحماية الجسد من الأمراض، كذلك استخدم الوشم لأغراض طبية.

وسمة الوشم الجمالية هي الأبرز لدى الغجر، خاصة حينما يشمل الخدين والحنك والجبين وكف اليدين والكتف والبطن. ويقتصر وشم الغجر على تلك المناطق، ويخلو تماماً من العبارات المبتذلة أو الرسوم المثيرة. ففي جو عائلي بهيج يتم الاحتفال بيوم وشم الفتاة التي غالباً ما تكون في سن المراهقة. وتختلف أساليب تنفيذ الوشم على الجسد من جماعة غجرية إلى أخرى، غير أن الطريقة الأكثر شيوعاً تتم بواسطة قطع معدنية مدببة أو إبر الخياطة

تضرب في المكان المخصص بعد أن تغمس في الكحل أو الرماد.

وتظهر رسوم الوشم لدى الغجر عالماً ثرياً من التخيلات الفنتازية والاساطير، ولعل الأشكال المستوحاة من المجال النباتي هي المستخدمة لدى العديد من الجماعات الغجرية. أما الأشكال الأكثر تداولاً في وشم رجال الغجر فتكون لحيوانات أو مرساة سفينة أو بعض العبارات المستمدة من الأغاني العاطفية الرائجة التي يرتبط مدلولها بتجربة الغجري الشخصية.

الحيوانات

الغجر مولعون بالحصان إلى حد الوله والتقديس. ويطلقون عليه تسمية (اغرا) فهو يمثل لديهم أهم اعمدة التقاليد القديمة.. وقد رسموه على عرباتهم الخشبية وداخل خيامهم.. وحتى سياراتهم الحديثة، باعتباره الحيوان الأكثر قرباً إليهم ومرتبطاً برحلاتهم وتجارتهم.

وتكشف تحيتهم «أرجو أن تعمر خيولك طويلاً» مدى أهمية الخيول في حياة الغجري، فهو يعامل جواده كصديق ويبدي مهارة فائقة في تربيته وعلاجه.. وقد قيل إن الغجري دون حصان ليس بغجري. ورغم ذلك وصف الغجري بفارس سيئ، إذ ينحصر اهتمامه بالحصان لأسباب تجارية بحتة. ويعتبر الغجري أن خبرته في الخيل من أنبل المهن التي يفخر بها أمام جماعته.

وامتهن الغجر تجارة الخيول.. وهي الأهم لدى الكثيرين منهم، بالمقابل كان الفلاحون وصغار الكسبة وبعض وحدات الجيش الزبائن الأهم لتلك التجارة.

لم تكن تجارة الخيول لدى الغجر قبل الحرب الكونية الأولى، تتعدى الحدود الدنيا. ومع اندلاع الحرب وتواصلها، ازدهرت التجارة إلى الدرجة التي ساهمت في إثراء العديد من العوائل الغجرية.

تنوعت استخدامات الحصان عند الغجر وفقاً لقوّته وأصالته. ورغم تطور الأزمنة، فإن الحصان لا يزال الحيوان الأهم في حياة الغجر.

بالمقابل رفض الغجر المتاجرة بالخيول الخاصة بهم.. وتلك التي تستخدم لجر عرباتهم، فهي يعتبرونها كأحد أفراد العائلة، لذا يصعب أن يعرض الغجري الخيول المتوشجة مع تفاصيل حياته اليومية للبيع. وقد تآلف الغجر مع الخيول وأحسنوا معاملتها، ورفضوا كل أنواع القسوة التي تمارس ضدها.

والغجري بارع عادة في جملة من الخدع لتحسين مرأى الحصان أمام الشاري، فهو يعمد إلى تزييف شكل الحصان وصحته تمهيداً لبيعه في الأسواق، واهاجة الحصان بوخزه بقنفذ قبل عرضه للبيع، كذلك يضع كمية من الحصى في آنية معدنية ثم يرجها تحت أنف الحصان فتثيره إلى حد الجنون. وخلال البيع يكتفي بإبراز الآنية المعدنية أمام الحصان ليبدأ بالقفز والوثب كأنه حصان أصيل ونشيط. ويحاول الغجري متابعة الشاري ليشتري الحصان أحد أفراد الجماعة بعدما يكتشف الشاري أن حصانه عجوز وعديم الفائدة.. حينذاك يعمد الغجري إلى إجراء التحسينات على الحصان لعرضه في السوق مجدداً.

ولعل عروض الخيول ومعارض البيع التي تقام على هامشها،

هي الفرصة الوحيدة لتجمع الغجر وتبادل الأخبار فيما بينهم واستعراض خيولهم. وتقام في الغالب عروض الخيول في العطل والأعياد. ويعود تاريخ تلك المعارض إلى مئات الأعوام، وكانت السبب الأهم لتجمع الغجر، إذ كانوا يأتون بعرباتهم وخيامهم ليقيموا على حواف المعرض قبل أيام عدة انتظاراً ليوم الافتتاح. يذكر أن إنكلترا هي البلد الأول الذي استضاف أول سباق للخيل عام 1511 وتم استخدام الغجر كفرسان في تلك السباقات.

ويُعدّ الدب الحيوان الثاني بعد الحصان في حياة الغجر، وثمة أسطورة غجرية متداولة في سيبيريا مفادها ان فتاة غجرية حملت دون علاقة جنسية وقد أفزعها ذلك وقررت الانتحار غرقاً، إلا أن رجلاً خرج من الماء وأنقذها وأخبرها أنها ستلد حيواناً يعمل كرجل فولدت دباً حظي بقبول أهلها لقوته وحسن تقبّله لتدريباتهم.. ومن هنا نشأ حب الغجر للدببة.

وليس في الأسطورة ما يعلن أية حقيقة سوى علاقة الغجر بالدببة، فهم يصطادونها صغيرة من أوكارها ويدربونها تدريباً قاسياً لتطيع أوامرهم بالرقص والعروض الفلكلورية التي يقدمونها في القرى والمدن. ويسمى الغجر في دول البلقان بقادة الدببة لولعهم الدائم بالدببة وتعليمها. فيما يطلق الغجر على الدب في فرنسا ووسط أوروبا تسمية مارتن، وتُغنّى له أغنية شهيرة خاصة (ارقص قليلاً يا مارتن.. هيا ارقص) وكانت بعض المدن الرومانية تحتفل قديماً بالمارتيني.. وهي أيام مكرسة للإله المريخ، وخلال الاحتفالات يؤتى بالمرضى لتطأهم أقدام الدببة ليشفوا، ومن هنا نشأت تسمية الغجر للدب بمارتن.

وتخصصت جماعات غجرية من البلقان باصطياد الدببة، إذ تعتبر عملية جماعية تستند إلى مجموعة من الطقوس التي تصاحب الصيد. ومن التقاليد المتبعة لصيد الدببة أن تبقى النساء والاطفال في المخيم ويخرج الرجال على شكل مجموعات صغيرة تتكون من ثلاثة إلى خمسة أشخاص، كما لا يسمح للنساء المريضات بالاقتراب من الصيادين قبل رحليهم. ويعتبر اصطياد الدببة عملية تعتمد على معرفة دقيقة بشعائر السحر التي عادة ما تصاحب العملية.. إلى جانب التقنية. وبعد اصطياد الدببة تُخلع أسنانها وتؤخذ إلى مخيم الغجر ليتم تدريبها بشكل قاس ومتواصل لغاية إتقان الصنعة تماماً. وتعلّم الغجر أيضاً تدريب القردة وبعض الحيوانات المتوحشة وانضموا إلى عدد من عروض السيرك وسط أوروبا وجتوبها.

وانحسرت عمليات اصطياد الدببة وتدريبها كثيراً إثر الضغوط التي مارستها جمعيات الرفق بالحيوان على صعيد العالم أجمع.

الكلب هو الآخر من الحيوانات المهمة لدى الغجر، وتأتي أهميته بعد الحصان والدب.. وهو بذلك يمثل عموداً أساسياً في حياة الغجر، فهم استخدموه في الصيد والحراسة ومرافقة القوافل. ولم تقتصر الكلاب على نوع معين أو حجم خاص، بل شملت كل الأنواع والأشكال.. لكنهم بالمقابل فضلوا نوع «ليتشر» الذي يتميز بالسرعة والذكاء والشجاعة.

ويعتبر الغجر القطط من الحيوانات الملوثة، كونها تلحس فروها، بينما يحتفون بالأفعى ويخصصون عيداً سنوياً للاحتفال بها، ومن يقتل أفعى في ذلك اليوم فسيحالفه الحظ طوال العام. كذلك

يستخدم الغجر جلد الأفعى لصناعة بعض التعاويذ. ويعتبر ابن عرس من أشد الحيوانات كراهية لديهم، لأنه ينفث ريحاً يعتبرونها عطاس الشيطان، لذا فان نفخ ابن عرس علامة سيئة، بحيث إذا صادفت قافلة غجرية ابن عرس في طريقها فإنها ستغير مسار رحلتها، خشية التعرض للمصاعب.. في الوقت ذاته يعتبر قتل ابن عرس جالباً للنحس لكل أفراد الجماعة.

وعلى العكس من ابن عرس يعتبر السنجاب جالب السعد للغجر.. كما هو الحال مع القنفذ. وتعلّم الغجر عبر احتكاكهم بشعوب أخرى استخدام الفخاخ والشرك في صيد الطيور، ويعود الفضل إليهم باختراع الطعم الصناعي لصيد الأسماك قبل أن يتحول إلى منتوج تجاري قبل قرنين كاملين.

السحر

مارس الغجر السحر.. ويتضمن السحر لديهم نوعين: الأسود والأبيض. يتألف السحر الأسود من الرقى الشريرة بغرض إيذاء الأعداء. ورقى الغجر كثيرة، دمى وتماثيل صغيرة من الشمع توخز بالإبر ليصاب العدو بمكان الوخزة، كما لديهم معتقداتهم للوقاية من العين الشريرة ومعالجة تأثيرها، وأكثر الحيوانات استخداماً في السحر الأسود الديك والطاووس والضفدع.

وتحترف النساء الغجريات سحر الأعشاب، التي تقدم كوصفات سحرية طبية للآخرين لاكتساب الرزق، لكن السحر الأسود يعتبر الثيمة الأهم للغجريات في تقديمها لأصحاب الحظ المتعثر والعاشقات والمنتقمات والعوانس والباحثات عن حمل محتمل.

النساء.. هن الشريحة المختصة بالسحر وقراءة الطالع، إنه امتياز أنثوي في جماعات الغجر. وشاعت ظاهرة التنبؤ بالمستقبل وقراءة الكف في أوروبا مطلع القرن الخامس عشر، واكتسبت أهمية بالغة، خاصة مع وصول المجموعات الغجرية الأولى إلى القارة الأوروبية، الأمر الذي دعا الكنائس إلى تحريمها وإصدار العديد من القرارات ضد ممارسيها.

ورغم أن الغجر يؤمنون بالحظ والطالع، فإنهم لا يمارسونه فيما بينهم، بل ظلت إحدى الحرف التي يمارسونها مع غيرهم بقصد الارتزاق.

وتستند طريقة الغجر في قراءة الكف إلى الأصابع.. فلكل إصبع رموزه الخاصة وعلاقته بملامح الشخصية وسماتها. كما استخدموا ورق اللعب لقراءة الطالع، حيث شاع الورق في العقود الأخيرة بين شرائح واسعة من قراء الطالع من غير الغجر. وثمة مواد أخرى استخدمها الغجر من بينها الخرز وحبات القهوة والعظام والحصى وقطع الزجاج الملون.. وغيرها من المواد.

الغجر في المنطقة العربية

أؤمن أن الغجر نبتوا من باطن الأرض،
وبلون الأرض صبغت أجسادهم.

أغنية غجرية

تتوزع جماعات الغجر في أرجاء المنطقة العربية كافة، وثمة مسميات تطلق عليهم ومن أشهرها «النّوَر» في بلاد الشام ومصر، و«الكاولية» في العراق، و«الحلب» في صعيد مصر والسودان، و«الزط» في الجزيرة العربية. وثمة تسميات أخرى تطلق عليهم في مصر من بينها البرامكة والهنجرانية والغوازي. ويتضح أن تسمية الغجر حديثة العهد نسبياً نظراً لصعوبة جمع حرفي الغين والجيم في مفردة عربية، كما أنها لم ترد في اي من المصادر التاريخية التي تستعرض تاريخ الغجر في المنطقة.. ويرجعها الأب انستاس ماري الكرملي إلى أصل المفردة التركية (كوجر).. وتعني الرحل، بينما يعود أصل مفردة «هنجرانية» التي تطلق على جماعات الغجر في مصر، إلى اللغة التركية وتعني الحداد.. كما تطلق عليهم أسماء أخرى كالقفص.

مفردة نَوَري (بفتح النون والواو) هي الأخرى محرفة عن لوري، وهي أحدى أهم قبائل الغجر التي نزحت من الهند. ودوّن ابن فضل العمري في «مسالك الأبصار» عن الغجر «وهم طائفة كثيرة العدد، ومنهم فرق مفرقة في البلاد، وفيهم ملك وامارة، ولهم خفة

في الحركات، يقف الرجل منهم إلى جانب البناء المرتفع ويلصق بطنه بإحدى زواياه القائمة، ثم يصعد فيه إلى أن يرتقي صهوته العليا».

واستقبلت المنطقة العربية أولى الهجرات الغجرية القادمة من الهند مطلع القرن الخامس الميلادي، واستقرت في السواحل الممتدة من جنوب العراق وإيران والبحرين. وعرفهم العرب قبل الإسلام، حيث اصطدموا مع الفتوحات الاسلامية، ثم أسلموا ودخلوا في ولاء مع قبيلة تميم، كما أثاروا العديد من القلاقل للحكم الأموي، خاصة بعد وصول الموجة الثانية منهم إلى بلاد الشام.

وبعد إعلان إسلامهم امتزج الغجر مع تفاصيل المجتمعات الإسلامية، لكنهم حافظوا على موروثهم الخاص ومارسوا مهنهم التقليدية كالموسيقى وقراءة الطالع وتركيب الاسنان الصناعية المغلفة بالذهب المزيف.. إلى جانب مهن هامشية أخرى.

وأهم الدول التي يتواجد فيها الغجر على نحو واسع هي العراق ومصر وسوريا ولبنان وفلسطين وبعض دول الجزيرة العربية، إضافة إلى دول شمال أفريقيا.

العراق

تطلق تسمية كاولي على الغجري في العراق، وهي محرّفة عن مفردة «كابلي». ويشير الدكتور مصطفى جواد إلى أن أصل التسمية هي كابل نسبة إلى عاصمة أفغانستان، وهي من المدن الرئيسة التي مر بها الغجر خلال رحلتهم.

قدم الغجر إلى العراق عبر موجات بشرية متتالية كانت أولها

تلبية لرغبة الملك الساساني بهرام غور في النصف الأول من القرن الخامس الميلادي. أما الموجة الثانية فجاءت مع المقاتلين العرب المتجهين نحو العراق بعد فتح السند. وفي عهد الحجاج بن يوسف الثقفي مطلع القرن السابع الميلادي سكنوا في منطقة كسكر.. وهي البقعة الممتدة بين نهري دجلة والفرات.

وفي عهد المأمون شرعوا بعمليات سلب البضائع المحمولة في نهر دجلة بين بغداد والبصرة. ومع تولّي المعتصم الخلافة عام 833 ميلادية حاربهم وانتصر عليهم وقدم بهم إلى مدينة بغداد، ومن ثم نقلهم إلى مدينة خانقين وما جاورها، ثم «وجّه المعتصم عجيف بن عنبسة في جمادى الآخرة لحرب الزط الذين كانوا غلبوا على طريق البصرة، وعاثوا، وأخذوا الغلات من بيادر مدينة كسكر وما يليها من البصرة، وأخافوا السبيل، ورتب عجيف الخيل في كل سكة من سكك البريد، تركض بالأخبار، فكان يأتي بالاخبار من عجيف في يوم، فسار حتى نزل تحت واسط، وأقام على نهر يقال له بردودا، حتى سده وأنهارا أخر كانوا يخرجون منها ويدخلون، وأخذ عليهم الطرق، ثم حاربهم، فأسر منهم في معركة واحدة خمسمائة رجل، وقتل في المعركة ثلاثمائة رجل، فضرب أعناق الأسرى، وبعث الرؤوس إلى باب المعتصم.

ثم أقام عجيف بإزاء الزط خمسة عشر يوماً، فظفر منهم فيها بخلق كثير، وكان رئيس الزط رجل يقال له محمد بن عثمان، وكان صاحب أمره إنسان يقال له سماق، ثم استوطن عجيف، وأقام بإزائهم سبعة أشهر.

وفي هذه السنة دخل عجيف بالزط بغداد، بعد أن ضيّق

عليهم، وقاتلهم، وطلبوا الأمان، فأمنهم، فخرجوا إليه في ذي الحجة سنة تسع عشرة ومائتين، وكانت عدتهم مع النساء والصبيان سبعة وعشرين الفاً، والمقاتلة منهم اثنا عشر، فلما خرجوا إليه جعلهم في السفن، وعبأهم في سفنهم على هيئتهم في الحرب مع البوقات، حتى دخل بهم بغداد.

وخرج المعتصم إلى الشماسية في سفينة يقال لها الزو، حتى يمر به الزط على تعبئتهم وهم ينفخون في البوقات، وأعطى عجيف أصحابه كل رجل دينارين، وأقام الزط في سفنهم ثلاثة أيام، ثم نقلوا إلى الجانب الشرقي، وسلموا إلى بشر بن السميدع، فذهب بهم إلى خانقين، ثم نقلوا إلى الثغر، إلى عين زربة، فأغارت الروم عليهم، فاجتاحوهم فلم يفلت منهم أحد»[1].

وفي إحدى غارات الروم التي استهدفت المنطقة الشمالية من العراق، اجتاحوا تجمعات الغجر ونقلوهم إلى بيزنطة سنة 855 ميلادية لتغدو المجموعة الأولى من الغجر التي انتقلت إلى أوروبا عبر مضيق البوسفور. يقطن الغجر في العراق بكثافة في ست محافظات، تأتي البصرة في مقدمتها. . تليها بغداد والقادسية وذي قار ونينوى والمثنى. وتقل نسبتهم عن واحد بالمئة في كل من ميسان وواسط وبابل. ويتركزون على مشارف المدن الكبيرة، بعد أن نصبوا خيامهم أو أقاموا بيوتاً من الصفيح أو الخشب، ومنها حي الكمالية، إحدى ضواحي العاصمة بغداد.

(1) الكامل في التاريخ، ابن الأثير، دار صادر ـ بيروت، المجلد السادس ص 433.

بدأت عملية استيطان الجماعات الغجرية في العراق للمرة الأولى عام 1958 بعد أن تمكنت بعض الأسر الغجرية الميسورة من شراء الأراضي، علماً أن قانون التسجيل العقاري المرقم (43) يمنع الغجر من تملّك العقارات سواء كانت أرضاً زراعية أو أميرية باعتبارهم أجانب. وتعتبر عائلة حامد السراي أول أسرة غجرية قطنت حي الكمالية عام 1958 حيث تم تسجيل الأراضي المشتراة بأسماء عراقيين، مما استقطب الحي المئات من الأسر الغجرية ليغدو ثاني تجمع سكني للغجر في العراق بعد حي الطرب «المعامل» جنوبي البصرة. ويحترف غجر الكمالية الرقص والغناء كحرفة أساسية، إلى جانب مهام خدمية أخرى.[2]

ويعتبر حي المعامل المستوطنة الأوسع بالنسبة لغجر العراق، ويقع على الطريق الواصل بين مدينتي الزبير وصفوان جنوبي العراق، ويعرف شعبياً بحي الطرب. . أنشأته الدولة عام 1971 قرب حلبة سباق الخيل ليغدو نشاط الفرق الغجرية مكملاً لسباق الخيل في محاولة لجذب السياح من دول الخليج. واستقطب الحي ما نسبته 40 بالمئة من مجموع الغجر المستقرين في العراق، الأمر الذي جعل الحي المستوطنة السكنية الأوسع لغجر العراق.

بالمقابل تمثل منطقة أبو طراريد الواقعة على الطريق الواصل بين مدينتي الديوانية وعفك، المستوطنة الثالثة بالنسبة للغجر في العراق، حيث طلبت مجموعة من الأسر الغجرية من الجهات

---

(2) الغجر والقرج في العراق، طه حمادي الحديثي، جامعة الموصل، الطبعة الأولى 1979، ص 52.

المسؤولة إقامة تلك المستوطنة بعيداً عن مركز المحافظة، وتحويلها إلى مركز ترفيهي، لتستقطب تالياً الأسر الغجرية التي اعتادت التنقل بين مدن المشخاب والفوار والحمزة والشامية. أما مستوطنة السحاجي فقد ظهرت بوادر الاستيطان فيها عام 1973، وتقع على الطريق الواصل بين مدينتي الموصل وحميدات، وتحتل المرتبة الخامسة بين مراكز استيطان أسر الغجر المتنقلة في المحافظات الشمالية. وتزاول أغلب تلك الأسر مهنة الغناء والرقص.

وتقيم بعض أسر الغجر في مستوطنة العثمانية الأميرية، وهي إحدى ضواحي مدينة الناصرية، وتقع في الطريق بين الناصرية والبصرة. وبدأت أولى ملامح الاستيطان فيها عام 1975 بعدما وفدت إليها العشرات من الأسر الغجرية، المتجولة بين مناطق سوق الشيوخ وعكيكة والصلاحية والشطرة. وبلغت نسبة استيطان الغجر فيها 10 بالمئة من مجموع الغجر الموجودين بالعراق. ويمارس سكانها الغناء والرقص، اذ تضم حوالى 150 مطربة ومطرباً، إضافة إلى فرق موسيقية عدة.

ولعل الشراكة الغربية هي المستوطنة الأصغر بالنسبة للغجر في العراق، وتقع في الطريق الواصل بين مدينة السماوة وبحيرة ساوة. وتفتقر مستوطنات الغجر عادة إلى الخدمات الأساسية المرتبطة بالحياة اليومية، إضافة إلى خلوّها من المدارس والمستشفيات. . الأمر الذي أدى إلى شيوع الامية والتخلف في صفوفهم.

غجر العراق يزاولون مهناً عدة لكسب عيشهم كالرقص والغناء وتركيب الأسنان وصناعة الآلات الموسيقية وتربية الأطفال وقراءة الطالع وتجارة الخيول، إضافة إلى التسول. وتعتبر مهنة الرقص

والغناء الفعالية الاقتصادية الأهم في حياة الغجر، إذ تبلغ نسبتها 80 بالمئة من مجموع القوى المنتجة لدى الغجر، في حين توزعت نسبة 18 بالمئة على مجموع المهن الأخرى.

واتسعت مهنة الرقص والغناء في العقود الثلاثة الأخيرة الماضية بصورة واضحة، بعدما احتل الغجر العديد من واجهات الفن الغنائي العراقي إثر الدعم الرسمي الذي قدم لهم.

ويلازم الرقص والغناء الغجر منذ طفولتهم بتوجيه من كبار العائلة، وذلك لإعانتهم على التكيف الاجتماعي الخاص بالمهنة، إلى جانب اكتساب قدر كبير من الحرفية. وتقام عادة حفلات الرقص والغناء في مستوطنات للغجر تلبية لرغبة الزبائن الذين يترددون عليهم، فضلاً عن الحفلات التي يحييها الغجر في الأحياء الشعبية والقرى تلبية لدعوات الأسر لإحياء حفلات الأعراس والختان، إضافة إلى الحفلات التي تقيمها السلطة بمناسبات رسمية.

وحصدت بعض الفرق الغجرية وعدد من المطربات الغجريات شهرة واسعة، إثر إتاحة المجال لهم في وسائل الإعلام الرسمية، ومن أهمها فرقة حمدية صالح وفرقة شكرية خليل شياع وفرقة ريم محمد سوادي وفرقة ساجدة عبيد، إذ سجلت حمدية صالح لمؤسسة الإذاعة والتلفزيون 23 أغنية، وساجدة عبيد 4 أغان، وشكرية خليل 4 أيضاً، وثلاثاً لفوزية جبار، وأغنيتين لريم محمد سوادي. أما عروض الرقص فبلغت فترتها الزمنية 23 ساعة. كما زارت بعض الفرق الغجرية دولاً عربية منها الكويت والإمارات والأردن وسوريا وقطر والبحرين لإحياء حفلات موسيقية أو التعاقد مع المرابع الليلية لإحياء حفلاتها.

بالمقابل تخصصت أسر غجرية أخرى بصناعة الآلات الموسيقية كالربابة والطبول والرق التي تدخل في صناعتها مواد أولية مختلفة مثل الخشب والفخار والمعدن والجلد. وتعتبر أسرة خليفة مردان في حي الكمالية إحدى أهم الأسر الغجرية المشهورة بصناعة الآلات الموسيقية الشعبية.. إلى جانب أسر غجرية محددة في حي المعامل بالزبير.

ورغم التهمة الملصقة بالغجر والمتمثلة بسرقة الأطفال، فإن ثمة غجريات يتولين تربية الأطفال الرضع من الغجر أم من غيرهم مقابل أجور مالية. وتستند تلك المهنة إلى الثقة بين أولياء الأطفال والمربيات.

ويتعامل بعض الغجر بتربية الخيول والمتاجرة بها والمشاركة في حلبات السباق. وقد شجع نادي الفروسية ببغداد أصحاب الخيول من الغجر على الانضمام إلى عضويته.

ومن المهن التي تطبّع عليها بعض الغجر هي التسول لتأمين معيشتهم وذلك بسبب معاناتهم من العوز المادي.. ومن البطالة، لضعف حافز العمل. ومن المهن الأخرى التي يمارسها غجر العراق تركيب الأسنان المصنعة من العظام والعاج، بالإضافة إلى تغطية الأسنان السليمة بقشرة من الذهب المزيف لغرض الزينة، إذ إن الغجري مولع بأسنان الذهب، ولا يقبل تغيير أسنانه إلا عند طبيب غجري متجول يرتدي عادة بدلة أنيقة ويحمل حقيبة تحتوي على كل أدوات الخلع والتركيب والترميم، متجولاً بين مواقع الغجر وخيامهم.

ويعدّ الغجر في العراق من الأجانب المقيمين فيه ضمن القرار

المرقم 16390 الصادر عام 1959. وقد تم استثناؤهم من أحكام قانون إقامة الأجانب الصادر عام 1962. وبعد عامين أقرت القوانين الرسمية إمكانية حصول الغجري المستوطن على الجنسية العراقية، فيما لو توفرت فيه شروط قانونية حددتها لجنة خاصة. وضم احصاء عام 1965 الغجر لأول مرة في تاريخ العراق، بينما أغفلتهم الإحصاءات السابقة ولم يشملهم تعداد السكان.

وتمثل الزراعة مرتبة متدنية في جدول الفعاليات الحياتية لدى غجر العراق، فالغجري يحتقر الفلاح ويزدري مهنته باعتبارها عبودية للارض.. ويطلق عادة على المزارع تسمية «كاجو» وهو تندر بمعنى العبد، فالأرض كلها ملك الغجري اينما حل أو ارتحل.

ويقوم النظام الاجتماعي لغجر العراق على أساس عشائري، فلكل عشيرة أو مجموعة رئيس يدير شؤونها، وله كلمة مسموعة بين أفراد عشيرته، ويمثلها أمام العشائر الأخرى أو مع الدولة. ومن العشائر والأفخاذ التي ينتمي إليها الغجر: البو خزام، البو عبد، البو عطار، البو بارود، البو حيلو، البو سويلم، البو طحيمي، البو ثنيوان، البو نصيف، والبو دلي.[3]

لامس تطور الحياة منذ ستينات القرن الماضي غجر العراق، دون أن يترك جزءاً من آثاره على عاداتهم وتقاليدهم، فقد ظلوا على هامش الحياة وبعيداً عن ساحتها الفعلية، عدا انهم استبدلوا عرباتهم الخشبية بسيارات حديثة.

---

(3) مصدر سبق ذكره، ص 178.

مصر

رغم أن الغجر في مصر يعيشون ضمن تفاصيل الحياة المصرية، الا انهم متميزون ومعزولون. ولم يُعرف تاريخ هجرتهم على وجه التحديد، لكن الدراسات والبحوث تشير إلى أنهم وصلوا إلى مصر قادمين من القسطنطينية منذ أكثر من قرنين. وقد دوّن الكثير من الكتّاب والرحالة الذين زاروا مصر ما يتعلق بوجود الغجر، حيث أشار بيلون إلى وجود الغجر في مؤلفاته حين زار مصر عام 1546 وكذلك فعل الكاتب سفاتيك إلى الغجر عام 1558 وقدم الكثير من الغربيين وصفاً دقيقاً لهم. ويعتبر سيتزن أول من درس الغجر في مصر بشكل تفصيلي، متطرقاً إلى تاريخهم في مصر وعلاقتهم مع الآخرين.

ورغم اتساع الدراسات عن الغجر، فإن صعوبات جمة اعترضت طريق إحصائهم، فقد كانوا يهربون خشية من دفع ضريبة الرؤوس التي فرضها الوالي محمد علي باشا، كما أنهم كانوا شديدي الشك في الآخر ولديهم رغبة جامحة في أن يحتفظوا بأسرار حياتهم الخاصة.

ينقسم غجر مصر إلى ثلاث جماعات وهي: (الغجر، الحلب، والنور). وترجع الاختلافات بين الجماعات الثلاث تبعاً لاختلاف هجرتهم والمهن التي يمارسونها، كما أن لكل جماعة سمات مميزة.. وإن توحدت تحت قاعدة واسعة تحمل الاتجاهات الغجرية الرئيسة.

ففئة الغجر هاجرت إلى مصر قادمة من القسطنطينية خلال الحكم العثماني، وتعتبر لغتهم الأقل اقتباساً لمفردات غريبة قياساً

للغة التي تستخدمها الجماعات الأخرى. ويعتقد أنهم هاجروا من مقاطعات الدانوب قبل أن يصلوا إلى القسطنطينية. وتنتشر هذه الجماعة في مناطق واسعة من مصر وتعمل بمهن متميزة، وتعيش حياة خاصة، وتنتشر في الوجهين القبلي والبحري على حد سواء. ويمارس بعض أفرادها التجوال، بينما يستقر البعض الآخر على اطراف المدن والقرى ويمتهنون إحياء الحفلات والتسول وبيع الكحل، وتعمل الكثير من نسائهم كمرضعات.

أما الحلب فهم أفقر الجماعات الثلاث، وينقسمون إلى أربع قبائل وهي: التباتية والسروتية وشويها وقبيلة الهويدات. وينتشرون في الصعيد أكثر من الوجه البحري، كما يتركزون في القرى أكثر من المدن. ويعيش معظمهم في منازل من الطين ويمارس بعضهم حياة التجوال مصطحبين معهم خيامهم التي ينصبونها على مشارف المدن خلال الأعياد والمناسبات الدينية لممارسة الغناء والرقص بما يعرف بالغوازي، ولممارسة التسول وقراءة الطالع ورسم الوشم والسرقة أحياناً. وتقوم النساء عادة بكل الأعمال دون الرجال.. العاطلين عن العمل بشكل دائم في اغلب الجماعات الغجرية.

وتشتهر جماعات من غجر مصر بعلاج الحيوانات واصطياد الثعابين وتصليح الكوالين (الأقفال) وصناعة المراجيح وتجارة الخردة والعطارة، وألعاب السيرك مع حيواناتهم المدربة من قردة وكلاب وثعابين وأسود ونمور، وتعتبر عائلة الحلو المتحدرة من أصول غجرية من العوائل المتخصصة في هذه المضمار.

ويردد الحلب أن أحد مشايخهم قد حصل من أحد ملوك مصر على حق التجوال وامتياز الإعفاء من الضرائب، غير أن والي مصر

محمد علي أجبرهم على دفع ضريبة الرؤوس. ويتسم الحلب بالبذاءة وقلة الاحتشام، خاصة فيما يتعلق بطلب المال.

النور أو الهنجرانية.. هم الجماعة الثالثة، ويعتبرون أغنى الجماعات كونهم لصوصاً محترفين وينتشرون في الوجه البحري، إذ لا تناسبهم مجتمعات الصعيد المغلقة. وتعتبر النساء لديهم القوى العاملة التي تسرح من ساعات الصباح ولغاية ساعات متأخرة من الليل ليأتين بالغلة من نقود التسول والمسروقات. ويسكن النور بيوتاً محصنة يصعب اقتحامها من قبل قوات الأمن.. وأهم مراكز تجمّعهم منطقة المطرية وقرية طهواج بالدقهلية ومنطقتا ميامي والعصافرة بالاسكندرية وكفر الدوار بالبحيرة والتبين والفيوم وامبابة وأبو قتاتة بالجيزة. ويتعامل النور مع محامين من ذوي أسماء كبيرة. وتعترف نساء النور بأنهن سارقات وأن تلك المهنة التي ورثنها عن عائلاتهن هي مهنة كأية مهنة أخرى لها أصول وقواعد.

ورغم انتماء الجماعات الثلاث إلى الجنس الغجري فإن نظرة كل جماعة نحو الأخرى تتسم بالاحتقار والاستهجان. فالحلب يحتقرون الغجر لأن نساءهم فاسدات ورجالهم يتسترون عليهن، وينظر النور والغجر إلى الحلب على أنهم فقراء متسولون ومشردون، في حين يرى الحلب والغجر أن النور لصوص مطاردون، لذا فالعلاقات بينهم ضعيفة ومحصورة ضمن نطاق ضيق للغاية. وإن كانت تلك هي نظرتهم لبعضهم، إلا أن نظرتهم للآخرين من غير الغجر تتبلور بالاحتقار، فهم يرون سواهم من (الخشانة) أغبياء ومغفلين. وتعني مفردة فلاح لديهم كل من هو ليس غجرياً.

ويفضل الغجر زواج الأقارب ويبدأ من أبناء العم والخال ثم

أبناء المهنة الواحدة ثم بقية الجماعة. وتكون أغلب الزيجات وقت الظهيرة. ومن أبرز طقوس الزواج لديهم هي أن يدفع للعريس مبلغ من المال يسمى (النقطة) ويتم استردادها في مناسبات اخرى. ولا يسمح الغجر للآخرين بمشاركتهم في نظام (النقطة) فهم لا يتقبلونها من غيرهم.. حتى من أقرب المحيطين بهم.

ويحل الغجر مشاكلهم بتكتّم شديد ولا يسمحون بتدخّل غيرهم فيها، وذلك من خلال وجهاء الأسر أو مجلس الكبار. وللثراء قيمة ومدلول مهم عندهم، فهو ينصف صاحبه في أي مجلس تحكيم بغضّ النظر عن كونه مخطئاً أو مصيباً. ويتنافسون بإحراق العملات الورقية أو بإلقاء النقود المعدنية في الأنهار، أو بذبح أكبر كمية من الأغنام.

ولا تستطيع أية اسرة غجرية إقامة فرح حينما يكون هناك حداد في أسرة أخرى إلا إذا بدأت الأخيرة بالأفراح.. ومن يشذّ عن القاعدة لا تشاركه الأسرة الحزينة في أية مناسبة بعد ذلك ويفرض على كبيرهم غرامة مادية.

ولا يدفن غجر مصر موتاهم إلا بعد مرور الكفن على عجل جاموس يذبح خصيصاً للوفاة. ومن أقسى وسائل اختبار الصدق لديهم استخدام كأس معدنية يعرضونها للنار حتى تتوهج ويأمرون المتهم بلمس الكأس المتوهجة بلسانه، بدعوى أن من كان صادقاً لن تؤذيه الكأس، وإن كان كاذباً فإن لسانه سيحترق.

واللغة السرية التي تتحدث بها الجماعات الغجرية الثلاث بمصر تسمى (الرطان) رغم اختلاف مضمونها عند كل منها. فالحلب يتحدثون لغة تحمل قدراً كبيراً من المفردات العربية والإيرانية

والتركية والهندية. أما النور فيستخدمون لغة مجهولة المصدر قريبة من لغة غجر هنغاريا.

وثمة جماعات غجرية أخرى تُعرف بأسماء غير أسماء الجماعات الثلاث الرئيسة، حيث ارتبطت بمسميات ذات مدلولات اجتماعية أو مكانية وهي: هجالة، طوايفة، شهاينة، تتر، صعايدة، قرداتية، وطهواجية.

سوريا

يشكل الغجر في سوريا مجموعة بشرية متجانسة ذات سمات خاصة، وتنقسم تلك المجموعة إلى جماعات تتميز وفقاً للمهن التي تزاولها. وتضم كل جماعة ذات مهنة واحدة عائلات أو أفخاذاً تختلف في النسب والأصل وتتقارب في المهنة.

ويتوزع الغجر في المحافظات السورية الداخلية وفي السهول المحاذية للحدود اللبنانية، وتنتشر خيامهم في ممالك يحكمها رئيس قبيلة يأتمرون بأمره ويرجعون إليه في كل أمورهم.

وينقسم الغجر في سوريا إلى قسمين رئيسين هما: القرباط والنور. تتواجد الفئة الأولى في معظم المدن السورية، ويمارس افرادها صناعة الغرابيل، وما زالوا يحتفظون بلغتهم الأم ويتميزون بالحدة والصخب. وتعود تسميتهم إلى جبال كربات في وسط أوروبا. . إحدى أهم المحطات التي توقفت فيها أولى القبائل الغجرية خلال رحلتها الأولى.

الفئة الثانية هي النور، وتضم أغلب الجماعات الغجرية الأخرى وفقاً للمهن التي تزاولها. ويتسم النّور بسلوك حياتي يستند إلى

ديمومة التنقل، وتعتبر المرأة محور العائلة الاقتصادي، باعتبارها المعيل الأساس لها، إذ تمارس معظم الغجريات مهنة التسول، في حين يبقى الرجال داخل الخيام طوال النهار بانتظار الزوجة ومحصولها اليومي.

ويُعرف الغجر في مدينة حلب بالقرباط، فيما يطلق عليهم في الساحل السوري تسمية المطاربة، في حين يلقبون في الشمال الشرقي من البلاد بالقرج. أما في ضواحي دمشق فتطلق عليهم تسمية الرياس. وفي منطقة الفرات يسمون بالحجيات، وفي جنوب سوريا يلقبون بالنّور.

ويحمل غجر سوريا بطاقات شخصية باعتبارهم مواطنين سوريين، ويؤدي شبابهم الخدمة العسكرية الإلزامية، فيما فضّل البعض منهم عدم التسجيل في سجلات الدولة ليبقى تحت صفة «أجنبي». وتتوزع الجماعات الغجرية في محافظات الحسكة ودير الزور والرقة وباديتي حمص وحماة، وتتواجد البقية في المدن السورية الأخرى، حيث يعيش ما يقارب 1700 عائلة في محافظة الحسكة، وفي محافظة دير الزور تتوزع 3 آلاف عائلة، وفي حلب 200 عائلة.. وفي باديتي حمص وحماة يصل عدد العوائل الغجرية إلى ما يقارب 4 آلاف عائلة. ويتنقل الغجر عادة بين المدن والقرى في مواسم الحصاد، كذلك في المناسبات الدينية، خاصة شهر رمضان والأعياد.

ويرتدي غجر سوريا عادة أزياء أبناء المنطقة، رغم أن معظمهم يفضّل الزي العربي. المرأة هي الأخرى لا يختلف زيها عن نساء المنطقة التي تقطنها، إلا أن الغجريات من كبار السن يفضلن

الملابس الفضفاضة والطويلة، إضافة إلى غطاء الرأس المعروف بالعصبة.

ويعتنق الغجر في سوريا الإسلام، غير أنهم لا يمارسون عادة طقوس العبادة، ويتحدثون العربية إلى جانب لغتهم الخاصة التي تطلق عليها تسمية «لغة العصفورة» وقد جاءت تلك التسمية من طائر صغير الحجم غريب في سلوكه يدعى «سنغل» أي الوحيد، ويعيش طوال حياته دون عش.[4]

ويتزاوج النّور فيما بينهم، ويتم الزواج في الغالب الأعم بشكل مبكر، وتندر لديهم حالات الطلاق.

وثمة غجر يجيدون الفارسية أو الكردية أو التركية، غير أن جماعات الغجر التي تقطن جنوب سوريا، لا تتحدث سوى العربية، وقليل من اللغة الغجرية أو «الضوم داري» ويزعمون بأنهم عرب وينحدرون من قبائل بني مرة وبني تميم.

وهناك جماعات أخرى من الغجر وهي: المتاجرون بالخيول، البهلوانيون، المبيّضون، الحدادون، الصاغة، والبرامكة.

وقد لامست بعض التغيرات حياة الغجر في سوريا خلال الأعوام القليلة الماضية، حيث استقر الكثير من العوائل في بيوت ثابتة داخل المدن، وعمل عدد من رجالهم في مهن رسمية، الأمر الذي فرض عليهم تغيير نمط معيشتهم توازياً مع متطلبات الحياة الجديدة.[5]

---

(4) عشائر النور في بلاد الشام، د. علي الجباري، دار التكوين ـ دمشق، الطبعة الأولى ـ 2006، ص 76.

(5) مصدر سابق، ص 22.

ورغم تداخل الجماعات الغجرية ضمن تفاصيل حياة المجتمع السوري، فقد ظلت محافظة على طقوسها الخاصة وقيمها وعاداتها التي ورثتها عن أجدادها منذ قرون بعيدة.

لبنان

يتوزع غجر لبنان في ضواحي المدن الكبيرة، ليشكلوا حزاماً عند مداخلها، خاصة العاصمة بيروت، وعاشوا على مدار عقود عدة على هامش الحياة اللبنانية. ومع اندلاع الحرب الأهلية عام 1975 رحل الكثير منهم إلى مناطق الساحل السوري، فيما انزوى القسم الآخر داخل البلاد بعيداً عن مناطق الاقتتال.

يدين أغلب غجر لبنان بالإسلام، ويمارسون ـ إلى حد ما - الطقوس المرتبطة بذلك الانتماء، غير أن بعض القيم القديمة المرتبطة بالحياة الغجرية ما زالوا يزاولونها لغاية اليوم، ومنها زواج المقايضة، إذ تتم مقايضة الفتيات بين العوائل، إلى جانب الترضية، وهي قيمة مادية تُدفع إذا كانت إحدى العروسين أجمل من الأخرى.

وتبدأ أولى طقوس الزواج بأن يشيد الشاب خيمته ويدفع مهر العروس أو (ثمنها) غير أنه غالباً ما يسترده من خلال النقوط التي يحصل عليها من المدعوين.

ومعايير الزواج عند الغجر تتفق تماماً مع تقاليدهم. فالسن المبكرة هي السائدة، إذ يقوم الأهل بتدبير العريس للفتاة وتتم الخطوبة في فترة لا تتعدى أياماً قليلة. وقد لا تتفق بالضرورة سن الفتاة مع سن العريس. غير أن تمرد الفتاة على قرار الأهل غير وارد على الإطلاق.

ومن شروط الزواج تقديم المهر كذلك المصاغ والهدايا. وتتم بعض الزيجات من خلال اختطاف الفتاة من قبل حبيبها وتدعى «خطيفة» ولا يعودان إلا بعد إرضاء أهل العروس لتقام بعدها حفلة الزواج مجدداً. وشهدت مخيمات الغجر حالات نادرة تمثلت بقتل الخاطف والمخطوفة.

وينقسم غجر لبنان إلى جماعتين أساسيتين هما: النّور والقرباط. ويعتبر النّور الفصيل الأوسع عدداً، خاصة داخل بعض المدن اللبنانية أو في ضواحيها. وليس ثمة علاقات بين الجماعتين، فنظرة كل منهما حيال الأخرى نظرة دونية.

ويرفض الغجر تسميتهم بالنّور متذرعين بِأن أصولهم عربية وتعود إلى قبائل بني تميم ونعيم ومرة، للهروب من نظرة الآخرين الدونية تجاههم.

ويمارس غجر لبنان التسول وإحياء الحفلات وبيع المنتوجات المصنعة يدوياً وتجارة الأغنام، إضافة إلى «ميكانيكا الأسنان» ويعتبر من يمارسون «طب الأسنان» هم الأغنى والأكثر نفوذاً في الجماعة، ولا يحمل ممارسو تلك المهنة أية شهادة على الإطلاق.

ولم يشارك الغجر في لبنان في الحرب الأهلية، وابتعدوا عن أطرافها المتنازعة. ويحمل أغلب غجر لبنان هويات قيد الدرس، وينأون عن السياسة والتعاطي بها. ومن أهم عوائل الغجر في لبنان عائلة الزيات، التركمان، الرمودي، عنطوز، والأسمر.

الأردن

يُعرف الغجر في الأردن بتسمية «أخوة كورة» و«أخوة سلمى» إضافة إلى تسميتهم الشائعة «النور». ويقطن غجر الأردن على حواف المدن والقرى. وغالباً ما يدخلون في جوف المدن في الأعياد والأعراس، لينثروا زهوهم وضجيجهم على تفاصيل الحياة الراكدة.

وفي مواسم الحصاد ينصب الغجر خيامهم على أطراف القرى لبيع منتوجاتهم اليدوية التي يستخدمها الفلاحون كالأدوات الزراعية والغرابيل المصنوعة من جلود الحيوانات، كذلك يعمل قسم منهم بتبييض الأواني المنزلية المصنوعة من النحاس. وفي أيام الربيع تأتي جماعات أخرى من الغجر متخصصة بتلقيح الخيول عن طريق حميرهم الضخمة، وينتشرون عادة، إضافة إلى الأردن، في جنوب سوريا.

وتعود أصول شريحة واسعة من غجر الأردن إلى فلسطين، حيث نزحوا عام 1948 إثر نشوء إسرائيل. ويحمل العديد منهم الجنسية الفلسطينية، ويتبعون لغاية الآن وكالة الغوث الدولية التي تقدم لهم بعض المساعدات. ومن تلك الجماعات:

- «الشعارنة»: وتتحدث اللغة الغجرية القريبة من اللغة الأم، رغم تداخل عدد من المفردات العربية في نسيجها. وتقطن في عمّان، ويسكن أغلب أفرادها في بيوت ثابتة، ويمتهن الرجال الأعمال اليدوية الحرة، فيما تمارس النساء التسول أو قراءة الطالع.

- «السناكرة»: وتقطن ضواحي العاصمة عمّان بعد أن نزحت من مدينة صفد عام 1948، ويمارس رجالها مهنة الحدادة، إلى جانب الأعمال الحرة. ويحمل أفراد تلك الجماعة الجنسية

الفلسطينية، ويتحدثون اللغة الغجرية، إضافة إلى العربية.

ـ «البرامكة»: وتتوزع في قرى مدينة إربد، ويمتهن رجالها تربية البغال لتلقيح خيول الفلاحين. كما يعمل بعضهم في تجارة الغنم وبيع مشتقات النفط على عربات تجرها الخيول.. وتدعى الجماعة أيضاً بالجعافرة، ويحمل أفرادها الجنسية الفلسطينية.

ـ «الجنيدات»: يتوزع أفراد الجماعة في عمان والقويسمية بعد نزوحهم من فلسطين. ويمارس رجالها صناعة الخواتم والأساور والخلاخيل من النحاس والفضة، كذلك صناعة السكاكين والخناجر. وثمة جماعات أخرى كالمايهات والجازي والسماعية في مدينة إربد.

ويدّعي أغلب غجر الأردن بأنهم من أصول عربية، وينتمون إلى قبيلتي بني مرة وبني هلال، عدا جماعتي «الحجازي» و«الحلاوية» الذين يجاهرون ويفخرون بأصلهم الغجري.[6]

ومن أبرز جماعات الغجر في الأردن: الحلاوية، السعادنة، الصوالحة، العودات، المسامرة، المصاطفة، الزليخات، التسابغة، الحدادين، الكلزي، الدقاقة، التمارزة، الكحاوشة، الكاولية، العذارات، الجيارنة، البشايرة، المورصلية، العلاعلة، الدباغة، والمصافرة.

وتبعاً للتطورات الحياتية التي لامست حياتهم، استقرت أغلب الجماعات الغجرية في الأردن في منازل ثابتة، وامتهنوا الأعمال الحرة، إضافة إلى الانخراط في الوظائف الرسمية، غير أن نسبة التعليم لديهم ما زالت متدنية.

---

(6) مصدر سابق، ص 839، 840.

فلسطين

ينتشر بين الفلسطينيين المثل الشعبي القائل: «طب زي النوري» ومفاده أن يصل شخص ما في منتصف النهار دون موعد مسبق. ويعود المثل إلى أن جماعات الغجر غالباً ما تصل إلى المكان المراد منتصف النهار أو قبل غروب الشمس، وذلك بسبب الخشية من السفر ليلاً. على العكس من بعض الجماعات الغجرية في دول أخرى التي تغادر المكان عادة قبل شروق الشمس تجنباً للمضايقات التي يسببها لهم السكان المحليون، لتصل إلى الأماكن المقصودة قبل غروب الشمس.

تعتقد الجماعات الغجرية الموجودة في فلسطين أنها وفدت من مصر، غير أن اللغة المتداولة بينهم تختلف عن تلك المتداولة بين غجر مصر. ويطلق الفلسطينيون عليهم تسمية الزط أو النور، فيما يطلقون على أنفسهم تسمية «الدوم». . وتسود باتجاههم نظرة دونية، إذ تتوشح تسمية «نوري» بأحقر الأوصاف وأدناها مرتبة.

وينصب غجر فلسطين خيامهم على مشارف المدن والقرى، فيما يتجولون نهاراً داخلها بحثاً عن أعمال هامشية يكلفون بها مقابل عائد مالي زهيد. ويعمل أغلبهم في مهنة الحدادة وصناعة بعض الأدوات المرتبطة بالإنتاج الزراعي، لذا يقابلون بترحاب من قبل الفلاحين في المواسم الزراعية، خاصة موسمي القطن والقمح، حيث يكون المزارعون بوضع مالي جيد يسمح لهم بإقامة حفلات الأعراس والختان.

يدين معظم غجر فلسطين بالديانة الاسلامية، غير أنهم بعيدون عن ممارسات الشعائر الدينية، باستثناء صيام شهر رمضان إذا تناسب

ذلك مع عملهم وتنقلهم، غير أنهم يعتبرون المحرك الأساس للاعياد، خاصة حين ينصبون الملاهي المتواضعة في ساحات القرى الخاوية ومداخل المدن.

ترتدي نساء الغجر في فلسطين ملابس قريبة من تلك التي ترتديها الفلاحات في جنوب البلاد، إضافة إلى الأقراط والأساور والخلاخيل المطلية بالذهب المزيف. وتحمل الغجرية طفلها على ظهرها بطريقة تمكّنها من مزاولة أعمالها دون أية إعاقة، فهي تتجول منذ ساعات الصباح الأولى في الأحياء السكنية الراقية للاستجداء أو البحث عن فرصة عمل أو قراءة الطالع. وغالباً ما تضفي الغجرية مسحة سحرية على مظهرها، خاصة مع وجود الوشم على أجزاء عديدة من جسدها، لتؤكد الاعتقاد الشائع بأنها تملك قدرات لمعرفة المستقبل والتنبؤ به.

ويخضع الغجر المتواجدون في الأراضي الفلسطينية للأعراف والقوانين التي يسنّها شيخ يختارونه بأنفسهم، ويعتبر ممثلهم لدى الجهات الرسمية أو لحل المشاكل العالقة بينهم.[7]

وتمارس بعض الجماعات الغجرية مهنة إحياء الحفلات والأعراس.. وتكون المرأة العنصر الأساس في هذه المهنة، إلى جانب زوجها أو عائلتها، غير أن الامتياز يبقى حكراً على الرجال، رغم أن المجتمعات الغجرية هي أمومية بالدرجة الأولى، فالمرأة لا بد أن تطيع زوجها وأن تحرس الخيمة في غيابه، وأن تؤدي مهامه

(7) جماعات الغجر، د. نبيل صبحي حنا، دار المعارف ـ القاهرة، الطبعة الأولى ـ 1980، ص 246.

في حال مرضه أو عجزه.. وهي بذلك تعتبر عنصراً فعالاً داخل الأسرة قبل زواجها وبعده أيضاً.

وواجه الغجر على الدوام معاملة سيئة يعود أحد أسبابها إلى أنهم يمارسون السرقة والتسول كجزء من عاداتهم القديمة، وعملوا كل ما باستطاعتهم لكسب المال، لذا عاشوا على هامش الحياة وبعيداً عن حراكها الحقيقي، بعدما اعتبرهم الكثير من الفلسطينيين اقل قيمة منهم ولم يرغبوا في الاختلاط بهم أو الزواج منهم.

ولعل العدد الأكبر من غجر فلسطين رحل إلى الأردن وجنوب سوريا عام 1948، فيما اتجه القسم الآخر نحو مخيم جباليا في غزة. ولا يزال عدد من الغجر يعيشون حتى الآن في ضواحي القدس ويمكن تمييزهم من خلال ملامحهم الخاصة. ويصل عدد المقيمين في القدس بنحو ألفين، وثمة عدة مئات في غزة، إلى جانب عشرات العوائل في مدينة نابلس.

ونتيجة للأحداث التي تشهدها الأراضي الفلسطينية، تقلصت حركتهم بشكل عام بين بعض المدن والقرى الفلسطينية.. كما أنهم لا يزالون يحملون الجنسية الفلسطينية ويتلقون الدعم من وكالة الغوث الدولية.

الجزيرة العربية

ثمة اعتقاد سائد لدى السكان المحليين أن غجر دول الجزيرة العربية وفدوا من إيران ومن الجزيرة السورية والأردن منذ زمن بعيد.

وتشير الدراسات التاريخية إلى أن الزط (أوائل الغجر) كانوا في الجزيرة العربية منذ ما يزيد على ألف سنة. ولكن ينظر اليهم كقبيلة

عربية من الرحل. وتنتشر الجماعات الغجرية على امتداد وسط وشرق ساحل منطقة الخليج.

وتعمل الجماعات الغجرية في دول الجزيرة بأعمال الحدادة والسمكرة والنجارة والنسيج، كما أن بعضهم يعمل في صناعة السكاكين والخناجر والسيوف.

وتتركز الجماعات الغجرية بالسعودية في نجد ويطلق عليهم «الزط» ويتكلمون اللغة الغجرية المفعمة بالكثير من المفردات العربية نظراً للفترة الزمنية الطويلة التي عاشوا فيها بالمنطقة. وثمة مجموعة أخرى في الشمال تطلق على نفسها تسمية «الصلب».

ويمتهن بعض الجماعات الغجرية إحياء الحفلات والأعراس، حيث تلعب المرأة الدور الأهم في تلك المهنة.

ومع التطور الذي لامس الجانب الاقتصادي في العقود الأخيرة، وانتشار وسائل الترفيه المتعددة، تراجع وضع الغجر وانزوت إلى حد بعيد مهنة إحياء الحفلات والأعراس، إذ إنهم استقروا طويلاً في مداخل المدن الكبيرة بحثاً عن عمل مضمون ومستقر.

ويرتدي الغجر ملابس أبناء المدينة الذين يتقاسمون معهم الحياة، وعادة ما تكون الملابس العربية التقليدية. ويعاني الغجر من نظرة استعلاء تجاههم، لذا فضلوا العيش على شكل مجموعات مستقلة تحيا على هامش الحياة بعد أن فرضت عليهم حالة حصار محكمة تحت ذرائع عدة أهمها عدم أدائهم للشعائر الدينية، رغم أنهم يدينون بالإسلام.

وفي البحرين يُعرف الغجر بالميناوية، نسبة إلى مدينة ميناو في إيران، التي قدموا منها إلى البحرين. ويمارس الميناوية الغناء

والرقص. وإلى جانب هذه الجماعة ثمة جماعة غجرية أخرى تطلق عليها تسمية شرشنة، وتعمل نساؤها في بيع السلع الخاصة بالنساء كالحناء والمرايا وأدوات الخياطة، إضافة إلى التسول وقراءة الطالع. وغالباً ما ترتدي المرأة الشرشنية ملابس نساء المنطقة.

وتطلق مفردة شرشني في دول الخليج عادة على المتكلم بصوت عال.. وهي مفردة تتوشج مع النظرة الدونية تجاه الغجر في عموم المنطقة.

عُمان

ينتشر الغجر في عُمان ويكوّنون شريحة اجتماعية مستقلة ومنغلقة.. وقد رفدت أعدادهم بأخرى قدمت من سواحل إيران الجنوبية. تنقسم الجماعات الغجرية في عُمان إلى عدد كبير من العوائل، ويطلقون على أنفسهم تسميات عربية مثل أولاد مطلبن، أولاد قبال، أولاد شغوف، سندي، حريمل، حيك، عشري.. وغيرها من الأسماء. وغالباً ما تتبع تلك الجماعات قبيلة عربية قوية لتحتمي بها، رغم أن نظرة المجتمع العُماني للغجر بصورة عامة لا تتعدى كونهم من الشرائح المتدنية.

ويدين غجر عُمان بالإسلام، إلا أنهم ما زالوا يحتفظون بالكثير من عاداتهم وقيمهم وممارساتهم.[8]

ويعتمد العمانيون على الغجر نظراً للخدمات التي يؤدونها والمهن التي يزاولونها، فالجماعات الغجرية تتجول بين مدن وقرى البلاد. وقد أستقرت بعض العوائل بصفة دائمة في المدن الكبيرة،

---

(8) مصدر سابق، ص 250.

خاصة تلك التي تلقّى أفرادها قسطاً من التعليم وانخرطوا في الوظائف الرسمية.

شمال أفريقيا

تتوزع أغلب الجماعات الغجرية المنتشرة في دول شمال أفريقيا على مشارف المدن الكبرى أو في المدن الصغيرة والقرى الفقيرة. ولا تزال متمسكة بطقوسها القديمة. ويمتهن الغجر في دول شمال أفريقيا في الغالب الأعم أعمالاً هامشية، ويدينون بالإسلام، غير أنهم لا يمارسون طقوس العبادة على الإطلاق.

في الجزائر ثمة عدة آلاف من الغجر، وقد وجدوا مبكراً في البلاد، حيث تشير الدلائل التاريخية إلى أنهم دخلوا الجزائر مطلع القرن التاسع عشر. وأنكرت عليهم سلطات الاحتلال الفرنسي حق التنقل، فيما شنّت عليهم العديد من حملات الاعتقال، وخصصت معتقل «ميزون كاريه» القريب من الجزائر العاصمة للمعتقلين الغجر.

ورغم تداخل الكثير من المفردات العربية والأمازيغية في لغتهم، فإن محافظتهم على لغتهم الاصلية ما زالت متواصلة، باعتبارها أحد معالم الهوية التي تحدد ملامح تمايزهم.

ظاهرة التنقل والترحال هي الأخرى من مقومات تفردهم في محيط سكاني واسع، فهم يتنقلون بين المدن الجزائرية الكبيرة في مواسم محددة لأسباب اقتصادية وتجارية بحتة.

في ليبيا يقطن الغجر في الجزء الشمالي من البلاد، وتتوزع مهنهم بين العمل الموسمي وقراءة الطالع وإحياء الحفلات. وقدم الكثير منهم من مصر في العقود الماضية، لذا يقترب غجر ليبيا من

غجر مصر في الكثير من الطقوس والعادات.

أما غجر المغرب فيقطنون عند مداخل المدن الكبرى أو ما بينها، ويمارسون عدداً من الأعمال الهامشية، ولعل الغناء وإحياء الحفلات من أهمها، إضافة إلى التسول والسرقة. وغالباً ما تقدم مجموعات من غجر إسبانيا إلى بعض المدن المغربية بغرض العمل بشكل موسمي في مهن هامشية.

تونس.. هي الأخرى تضم مجموعة من الغجر، لكنها اقل عدداً من تلك الموجودة في دول شمال أفريقيا الاخرى. وقدم معظمهم من ليبيا منتصف القرن الماضي بحثاً عن فرص عمل. وأغلب مهنهم تتوزع بين الأعمال الهامشية الانية وبيع الحيوانات ومعالجتها. والمرأة أساس العائلة الغجرية الاقتصادي، إذ تمارس معظم الغجريات مهنة قراءة الطالع والتسول.

وعادة ما يقيم الغجر في تونس بجوار المدن الكبيرة، لأن عدد السكان يكون أكبر، مما يدر عليهم ربحاً أكبر، خاصة لمن يمتهن التسول في الأحياء السكنية أو قرب المساجد أو الساحات العامة، كذلك للحصول على فرص عمل مناسبة في المواسم السياحية.

السودان

تزخر منطقة غرب السودان بأعداد كبيرة من الغجر الذين يزاولون المهن التقليدية التي توارثوها عن أجدادهم كصيانة الأدوات المنزلية وتجارة الخيول وباعة متجولين. أما النساء فيقتصر عملهن على التسول وقراءة الطالع، أو كراقصات لإحياء الحفلات، كذلك بيع الأعشاب ومواد العطارة في المدن والقرى البعيدة.

وتشير الدراسات إلى أن غجر السودان قدموا من مصر شمالاً، لذا فإن أعدادهم تقل مع الاتجاه جنوباً. ويعتبر أقليم دارفور نقطة التقاء غجر السودان ودول شمال أفريقيا.

ويعيش الغجر في عزلة خاصة منذ ثلاثة عقود، تجنباً للصراعات السياسية والقبلية الدائرة في تلك المناطق، وغالباً ما ينسحبون إلى مناطق أخرى آمنة مع اشتداد الفوضى والمعارك.

يشتهر غجر غرب السودان بممارسة التجارة، خاصة في مدن الفشر والابيّض ومنطقة كردفان. ويرتدون عادة الملابس السودانية التقليدية والمكونة من الجلباب والعمامة. ولا تختلف ملابس النساء أيضاً عن ملابس نساء الأقاليم السودانية، إلا في عدم وجود غطاء الرأس (الطرحة) التي يستعاض عنها بأشكال أخرى. ويمتازون بلون بشرة أقل سمرة من لون بشرة السكان المحليين.(9)

ويدين غجر السودان بالإسلام، غير أن إسلامهم يختلف قليلاً عما هو سائد في السودان، فهم يحتفلون بالاعياد وفقاً لطقوسهم الخاصة، وغالباً ما تحيي الراقصات (الغوازي) حفلات الغناء والرقص في مخيمات الغجر بوجود عدد من الضيوف.

وتطلق على الغجر في السودان تسميات عدة، لكن أشهرها اسم «غجر» وهي تسمية تشمل كل مكونات الجماعات الغجرية، إضافة إلى «الحلب».

وتتصف علاقتهم مع بقية السودانيين بالوئام، رغم شيوع فكرة السرقة والاحتيال عن الكثيرين منهم.

حول الأرض

أيها القرن العشرون..
ماذا تخبئ للغجر الحزانى؟
هل ستضـيء أيامهم المعتمة،
هل ستمسح الدموع عن عيون نسائهم،
هل ستلون أغانيهم وترقص معهم؟

الشاعرة الغجرية
لكسا مانوش

يستقر الترحال عميقاً في وجدان الغجري، ويبلور تفاصيل حياته، حتى وإن استقرت به الحياة في بقعة جغرافية، حيث تظل الحركة محور تكوينه الفكري والفسيولوجي. ومنذ الهجرة الأولى من الهند تواصلت الهجرات ليصل الغجر إلى كل بقاع الأرض، دون أن يطالبوا يوماً بأرض أو حدود.. ولم تكن تلك المفردات على مدى التاريخ أحد مقومات هويتهم.

مع مطلع القرن الحادي عشر الميلادي بدأت ملامح ظهور الغجر في الدولة البيزنطية. واستمرت الهجرة متجاوزة مضيق البسفور لتصل أولى الجماعات الغجرية إلى وسط أوروبا منتصف القرن الرابع عشر، وتنتشر بعدها في غرب القارة. أثار ذلك الوجود المفاجئ دهشة الأوروبيين حول أصولهم ومنبتهم.. وظلت الأسئلة تدور في حيرتها حتى أواخر القرن الثامن عشر.

حظي الغجر بالترحاب في بادئ الأمر من المجتمعات الأوروبية، ومع ازدياد أعدادهم بصورة ملحوظة، تعرّضوا لأنواع من المعاملة السيئة والاضطهاد، خاصة مع اتساع الشائعات السيئة عنهم وتعميم النظرة الدونية باتجاههم.

تُعتبر إيران المحطة الأولى للغجر خارج الهند بعدما نزحت قبيلة «لوري» الغجرية تلبية لطلب «بهرام غور» ملك فارس باستدعاء مجموعة كبيرة من المغنّين والعازفين ومن يتميز بشتى المواهب، للترفيه عن رعاياه الفقراء والمعوزين. جمع ملك الهند «شانكال» عام 420 قبل الميلاد، إحدى عشرة مجموعة من المغنين المتجولين وحدد لهم مسالك الطريق نحو بلاد فارس. وحين وصلوا منحهم «بهرام غور» البذور والماشية وخصص لهم الأرض ليحصلوا بواسطتها على رزقهم للعمل على ترفيه شعبه من دون مقابل. ومع نهاية العام الأول ترك الغجر الزراعة بعدما استهلكوا البذور، ليغدوا بالتالي عبئاً على البلد الفقير. غضب «بهرام غور» منهم وأمر بمصادرة ممتلكاتهم وآلاتهم الموسيقية، وأمرهم بكسب لقمة عيشهم بالعمل، مما اضطر العدد الأكبر منهم إلى مغادرة بلاد فارس.

يطلق الإيرانيون تسمية «كولي» على الغجر في إيران. . وهي تسمية متوشجة مع صفات القدح والذم، لكنها تعني حرفياً المتعاملين مع المعادن. ولم يعرف بعد تحديداً عدد الغجر في إيران، إذ لم يشملهم أي إحصاء رسمي منذ سنوات طويلة، كما أنهم سرعان ما يختفون بعيداً عن الأنظار خشية من تحديد علاقاتهم مع السلطة.

ويسكن الغجر عادة في الأحياء الفقيرة الموزعة على الطرف الجنوبي لطهران، لكن المناطق الغنية في شمال العاصمة غالباً ما تكون ساحتهم الفعلية للعمل، خاصة في تنظيف واجهات السيارات عند التقاطعات المرورية أو بيع الزهور والسلع الرخيصة، إلى جانب جمع القمامة من تلك الأحياء. . في حين يكون التسول موزعاً بين أداء تلك المهن.

ثمة تقليد لدى غجر إيران ويتمثل بتعدد الزوجات، لاستخدام تلك الزوجات في كسب العيش عبر التسول أو قراءة الطالع.. وصولاً إلى السرقة، في حين تكون مهمة الزوج مراقبة الزوجات وحمايتهن.

ويمتهن الغجر أيضاً الغناء والموسيقى وإحياء الحفلات، كذلك يعتبر رجالهم من المهرة في صناعة المناخل والطبول وحصير القصب وتدريب الحيوانات، أما مهارة النساء فتتمثل في بيع الاقمشة وادوات الطبخ وقراءة الطالع، إضافة إلى الاستجداء.

وفي إقليم عربستان يطلق على الغجر الكواولة ويتراوح عددهم في حدود 10 آلاف. وتمتاز علاقتهم مع المحيط المجاور بالتوتر. ويمارسون في الغالب الأعم مهنة الغناء والرقص. ويعتقد سكان المنطقة بخرافة حول أصول الغجر مفادها أن جدّهم الأول تزوج من أخته فحلّت عليه لعنة الخالق وعلى نسله من بعده.

أما في صربيا فتشير المصادر التاريخية إلى أن الغجر امتهنوا منذ عام 1348 للميلاد صناعة الأحذية ولجام الخيول، في حين امتهنوا في مدينة زغرب القصابة. وعاش الغجر في تلك المناطق بحرّية ولم يتعرضوا لأي نوع من الاضطهاد كالذي تعرضوا له في وسط وغرب أوروبا، ويرجع السبب إلى أن سكان تلك المناطق كانوا أساساً من أصل آسيوي إثر الاحتلال العثماني لها. الأمر الذي ساهم باعتناق غجر البلقان الإسلام، مع احتفاظهم بعاداتهم وتقاليدهم التي تميزهم عن بقية المسلمين في المنطقة.

وأدى سقوط الدولة العثمانية بعد الحرب الكونية الأولى إلى

نشوء دول المنطقة وتوسعها ضمن حدودها الحالية، واحتضنت تلك الدول (يوغسلافيا، بلغاريا، هنغاريا، ورومانيا) العدد الأكبر من الغجر (حوالى 4 ملايين غجري). ومثلت يوغسلافيا الفيدرالية الشكل الأكثر تقدماً للاعتراف بحقوق الغجر، فقد انتزعوا الاعتراف الرسمي بهم كأقلية أثنية مطلع السبعينات، وتمكنوا من الحصول على وضع خاص في احصاء عام 1971، وهي المرة الاولى في تاريخهم التي تشير إليهم استمارة إحصاء سكانية.. وتكرر الأمر في إحصاءات العقود التالية. وتوالت الحقوق مع مثابرة الجماعات الغجرية لانتزاعها فيما يخص الحقوق الثقافية والاجتماعية، وصولاً إلى بعض الحقوق السياسية، رغم أن وضعهم في الأزمنة البعيدة لم يكن يختلف كثيراً عن أوضاع بقية الغجر في دول اخرى، حيث مثلت يوغسلافيا الجسر الذي يربط رحليهم المتواصل بأوروبا.. لهذا استقر العديد منهم فيها.

ولعل الاعتراف بهم كقومية مستقلة في يوغسلافيا تأخر وذلك لعدم اكتمال مقومات القومية لديهم، خاصة ما يتعلق باللغة، إذ إنهم يتحدثون في يوغسلافيا ثلاث عشرة لهجة مختلفة، ويعود السبب إلى تشتتهم واختلاطهم بشعوب وإثنيات المنطقة. غجر يوغسلافيا حاولوا اجتياز تلك المعضلة بإصدار أول كتاب بتلك اللغة الرومية عام 1979 لتأتي تالياً نشرات وصحف ومجلات وإذاعات بتلك اللغة، خاصة إصدار قاموس صربوكرواتي ـ رومي ـ إنكليزي في مدينة سراييفو عام 1983.. لتبدأ موجة واسعة متخصصة في الأدب الرومي.[1]

---

(1) قصص شعبية غجرية، ترجمة وتقديم د. محمد موفاكو، منشورات وزارة الثقافة ـ دمشق، الطبعة الأولى ـ 1989، ص 10.

وفي عام 1981 اعترفت كل من جمهوريتي البوسنة والجبل الأسود بالغجر كقومية، مما ساهم في تعزيز الوعي الإثني لدى الغجر. وفي نهايات عقد الثمانينات من القرن الماضي ادعى عدد من رؤساء الجماعات الغجرية بأن رصلهم يعود إلى مصر، ومع بروز المشاكل السياسية على سطح الحياة اليوغسلافية وانهيار النظام الشيوعي، ازدادت الضغوط العرقية عليهم ليغدو الغجر وقود محرقة الانهيار الاقتصادي وانتشار البطالة وانحدار المستوى المعيشي على نحو جارف، لتبرز نزعات عنصرية تطالب بضرورة ترحيلهم والتخلص منهم، لذا فالاسم الجديد «المصريون» كان بمثابة النقاب الذي تلفع به الغجر تخلصاً من تاريخهم الحقيقي الذي يفرض عليهم الدونية في مجتمع تجتاحه عواصف التغيير.

ووفقاً لتقرير منظمة هلسنكي، ازدادت معاناة الغجر في يوغسلافيا السابقة، حيث وجهت إليهم اتهامات بالخيانة لصالح هذا الطرف أو ذاك من الأطراف المتحاربة. وخلال تلك الحرب تعرض الغجر لكل أشكال الاضطهاد بما في ذلك القتل والتهجير، وتمكن الكثير منهم من الوصول إلى بعض الدول الأوروبية مثل ألمانيا وإيطاليا وفرنسا وغيرها.

ويسكن حوالى مليون غجري في أراضي صربيا والجبل الأسود وكوسوفو. بينما تقدر إحصائيات أخرى رقماً أدنى لا يتجاوز 600 ألف غجري في صربيا. وكان يعيش ما يقارب 150 ألف غجري في كوسوفو وحدها قبل الحرب عام 1999 ولم يبق سوى 25 ألفاً وفق تقديرات، الأمم المتحدة.

في هنغاريا عاش الغجر ظروفاً أقل قسوة من بقية دول وسط أوروبا بعد أن وصلوا إليها عام 1383، حيث خضعوا مباشرة للملك باعتبارهم من رعاياه. وفي نهايات القرن الخامس عشر تخصصوا في صناعة الأسلحة وبعض أدوات التعذيب.

وعمليات الاضطهاد التي تعرض لها الغجر غالباً ما تنفذها أجهزة الامن نتيجة اتهامات كانت تسوقها العامة دون الاستناد إلى أدلة ثابتة، إذ اتهموا بقتل الأطفال وأكل لحومهم، والاعتداء على الجنود.

وجاءت محاولة ماريا تيريزا ملكة هنغاريا وبوهيميا لتوطين الغجر منتصف القرن الثامن عشر، للحد من الاعتداءات التي تعرضوا لها، حيث أجبرتهم على الاستقرار وأخضعت رجالهم للخدمة العسكرية، كما أجبرت العوائل على تعليم أطفالهم في المدارس الرسمية، في الوقت ذاته أطلقت عليهم تسمية «الهنغاريون الجدد» بعدما أصبحت تسمية الغجر مرادفة للسوء والسرقة والبطالة. لم تنل محاولة ماريا تيريزا أية نصيب من النجاح، بعدما أهملت الجانب التحرري والعبثي الكامن في تفاصيل حياة الغجر.

محاولات إجبار الغجر على الاستقرار تواصلت على المنوال ذاته.. ومن أهمها التجربة التي شهدتها إحدى القرى الصغيرة شمال بودابست عام 1827، حيث عمل الغجر في مزارع الكروم، كما أنهم شاركوا الفلاحين المجريين بحراثة وزراعة الأرض، في حين عملت بناتهم كخادمات لدى النبلاء وكبار المزارعين.

عمليات التفرقة العنصرية المصاحبة للعنف ضد الغجر تواصلت في هنغاريا، وأصدرت الأحكام الجائرة على مجاميع كبيرة من

الغجر. بالمقابل رفضت المدارس الحكومية قبول أطفالهم، كذلك امتنعت شرائح واسعة عن التعامل معهم، مما ساهم في زيادة نسبة البطالة في صفوفهم.

ومع تبنّي هنغاريا النظام الاشتراكي بعد نهاية الحرب الكونية الثانية، نالت المجموعات الغجرية هامشاً واسعاً من الحقوق الثقافية. وحصد الغجر نجاحات متواصلة داخل المجتمع الهنغاري، حيث حصل العديد منهم على شهادات أكاديمية، كذلك نجحوا في تطوير موسيقاهم مستندين إلى التراث الموسيقي الهنغاري العريق، واستطاعوا أيضاً إصدار العديد من المجلات المعنية بثقافتهم.

التغييرات السياسية وما رافقها من أزمات اقتصادية التي شهدتها هنغاريا نهاية العقد الثامن من القرن الماضي، ساهمت باتساع ظاهرة التمايز ضدهم، إضافة إلى شيوع العنف الذي غالباً ما تنفذه منظمات عنصرية. . ليفقدوا في أنظمة التحول الديمقراطي ما حصلوا عليه في الأنظمة السابقة، إذ لا يزال الكثير من غجر هنغاريا يعانون من شبح الفقر والرفض الاجتماعي. وتقدر نسبة عدد العاطلين عن العمل بحدود 90 بالمائة. وتشير التقديرات الرسمية إلى أن عدد الغجر في هنغاريا يقارب المليون، غير أن العدد الحقيقي قد يكون أكبر بكثير بحكم انتشارهم في الأرياف والمدن البعيدة المعزولة التي يصعب تحديدها كونها غير مستقرة من الجانب الاسيتطاني.

الغجر في اليونان ما زالوا يعانون على كافة المستويات، سواء تعلق الأمر بمستوى المعيشة أو التعليم أو المعاملة في الدوائر الرسمية أو على مستوى الشارع. وليس أدل على كراهية المحيط،

من جعلهم إحدى مفردات السباب، إذ إن لفظ «غفتوس» أي غجري تعني كل الصفات السيئة في نظر الكثيرين، فقد تعرضوا لكل أشكال الاضطهاد بما في ذلك التهجير، وتمكن الكثير منهم من الوصول إلى بعض الدول الأوروبية أو إلى أمريكا قبل انضمام اليونان رسمياً إلى الاتحاد الأوروبي مطلع الثمانينات من القرن الماضي.

ينتشر الغجر في معظم المدن والقرى اليونانية، غير أنهم يعيشون على هامش حياتها، وغالباً ما يتخذون من مداخل المدن الكبيرة أو الضواحي الهامشية الفقيرة مقرات سكنية لهم. وكانت أولى طلائع الغجر قد وصلت إلى اليونان عام 1322 بعد عبورها مضيق البوسفور. ويظهر أول وجود لهم في سيرة القديسين في مدوّنة محفوظة في معبد بجبل آثوس شمال اليونان.

ويعاب على غجر اليونان تفرقهم على ما يهمهم، ونأيهم أيضاً عما يجري حولهم من أحداث، همّهم الترحال والإقامة حيث ينتهي بهم المطاف، وإذا أجبروا على البقاء داخل حدود معينة بفعل الإجراءات الحكومية الجديدة فإنهم يمتهنون التسول والعيش في الأماكن المهجورة. بالمقابل تمتهن جماعات منهم الغناء والموسيقى، واستطاع عدد من الفنانين الغجر التربع على القمة في الغناء اليوناني المعاصر.

ويشكو الغجر من التمييز العنصري ضدهم، فالجميع يعاملونهم بطريقة مختلفة، ولا تُراعى أثناء التعامل معهم أية قيمة إنسانية، أو اتفاقية دولية لحقوق الإنسان، أو حتى المساواة بين الناس في الأديان السماوية، إذ نُقل بعضهم إلى مستوطنات معزولة في ما وصفه خبير في المجلس الأوروبي بعبارة «الفصل العنصري الراسخ في الأنظمة

والأعراف» وهو ما تعدّه منظمات الدفاع عن حقوق الإنسان تمييزاً عنصرياً.

ورغم أن معظم غجر اليونان هم من المسيحيين الأرثوذوكس، فإن النظرة الجمعية تجاههم لا تخلو من استياء واضح كونهم قدموا من تركيا، العدو التقليدي لليونان، مما يفسر ظاهرة عدم الترحيب بهم في بعض الكنائس.

الأجيال الجديدة من الغجر استطاعت، إلى حد ما، كسر حاجز الصورة النمطية عنهم بمواصلة تعليمها وتسلم مناصب مهمة في مؤسسات الدولة، كما أن البعض دخل مضمار السياسة من خلال الانتماء إلى الأحزاب الرئيسة الفاعلة في البلاد للحصول على مكاسب آنية. في الوقت ذاته تأسس العديد من الجمعيات الغجرية التي تُعنى بالدفاع عن قضاياهم وطرحها أمام الرأي العام اليوناني.

في تركيا وخلال السلطنة العثمانية لم يتعرض الغجر لأية مضايقات كالتي تعرضوا لها في اوروبا، ويعود السبب إلى تعدد الأمصار والشعوب التي كانت تحت سيطرة الدولة العثمانية، إضافة إلى الضعف المزمن لإدارة الدولة، كما أنهم لم يشكلوا أي تهديد للسلطة.. والتزموا بدفع الضرائب المترتبة عليهم. وصدر خلال فترات زمنية مختلفة عدد من «الفرمانات» الهامة بشأنهم في مجال الإدارة والضرائب.. كقانون تنظيم الدعارة الغجرية في اسطنبول وأدرنة وصوفيا، وقانون تنظيم عمال المناجم من الغجر.

وكانت أولى جماعات الغجر قد دخلت تركيا في القرن الثالث عشر ورافقوا الجيوش العثمانية كمستخدمين وعازفين، كذلك

كجنود. وتشير الوثائق الرسمية إلى وجود الغجر بقوة في الحملات العسكرية التي جهزتها السلطنة على مدى مساحة زمنية واسعة، كما أكدت وثائق دوائر الضريبة أنها جمعت عائداتها من الغجر غير المسلمين عام 1475 في مدينة بلقانيا. دوائر الضريبة ذاتها أشارت في الوثائق إلى أنها بدأت بجباية الضرائب من الغجر بصورة قانونية وواسعة النطاق عام 1522. واحتوت تلك الوثائق على معلومات شاملة عن الغجر وأعدادهم وعوائلهم والمهن التي يمارسونها، إضافة إلى منزلتهم الاجتماعية.

وفي عام 1541 أصدر السلطان سليمان القانوني العديد من «الفرمانات» الخاصة بوضع الغجر لتحديد علاقتهم مع المجتمع التركي، ووفقاً لتلك القوانين تم منح عدد من الامتيازات للغجر الذين خدموا في الجيش العثماني، وأمر السلطان بإرسال علماء دين لتجمعات الغجر بغرض دفعهم لاعتناق الإسلام وتعليمهم أصول الشريعة. وبعد ستة أشهر من العمل لم يطبق الغجر أياً من تلك التعاليم.. وبقوا على حياتهم. فأمر السلطان بحرية الانتماء الديني بالنسبة للغجر، شرط أن يدفع المسيحيون منهم الضرائب.. عندها تحول أغلب الغجر إلى الإسلام بصورة شكلية هرباً من الضرائب المفروضة على غير المسلمين. وفي عام 1878 أصدر السلطان العثماني قانوناً يقضي باستثناء الغجر المسلمين من الانتماء للجيش، ليتحول الكثير منهم إلى الأعمال الحرفية أو التجارة الموسمية.

واختار الكثير من الغجر تركيا بدلاً عن اليونان بعد توقيع معاهدة لوزان عام 1923 التي رسمت الحدود بين الدولتين بعد سقوط الدولة العثمانية، كما منحت سكان المناطق الحدودية حق

اختيار إحدى الدولتين. وأغلب الغجر الذين فضلوا تركيا كانوا من المسلمين، واتخذوا مدينة ازمير ومناطق الجنوب الشرقي من تركيا، وضواحي مدينة اسطنبول مواقع لسكناهم الجديدة.

ويجيد العديد من غجر تركيا اللغة التركية والكردية، إضافة إلى اليونانية، ويدين أغلبهم بالإسلام، لكنهم غير ملتزمين باداء طقوس الديانة إلا ما يتناسب مع مصالحهم وأهوائهم. وكان الغجر القاطنون في مدينة اسطنبول مسيحيين في الغالب، إلا أنهم تحولوا إلى الإسلام بعد أن دخل العثمانيون المدينة وفرضوا الضرائب على غير المسلمين.

ويمتهن الغجر في تركيا حالياً العمل في الفنادق والمنتجعات السياحية صيفاً، في حين تعمل نساؤهم كخادمات في منازل الأتراك، كذلك يستغل الغجر الموسم السياحي بتنظيم حفلات موسيقية للسياح، والعزف في حفلات الزفاف. أما في الشتاء فيجدون صعوبة في العثور على أعمال دائمة، باستثناء العمل في مزارع الحنطة والزيتون.

ولم تطرأ أية تغييرات جذرية على المهن التي مارسها الغجر منذ قرون عدة، فما زال الكثير منهم يزاول مهنة الحدادة، كذلك ظلت الفرق الموسيقية تعزف في المطاعم والمرافق السياحية لكسب قوتها. تجار الحيوانات منهم استبدل مهنته بتجارة السيارات القديمة، فيما تبيع النساء الزهور على نواصي الطرق. النساء الكبيرات السن تقتصر أعمالهن على ضفر السلال، خاصة في المناطق الريفية، إضافة إلى قراءة الطالع والتسول. ويمتهن غجر المدن وضواحيها جمع القمامة وفرزها لبيع بعض موادها إلى شركات تدوير المواد المصنعة.

ويبلغ عدد الغجر في تركيا وفق الاحصاءات الرسمية نصف مليون، غير أن العدد الحقيقي يفوق هذا الرقم بكثير، إذ يشير الغجر إلى أن عددهم يبلغ نحو مليوني نسمة، وأن بعض جماعات الغجر يخفي أصله الحقيقي للحصول على وظيفة أو مركز اقتصادي أو واجهة اجتماعية.

وخلال الأعوام القليلة الماضية زاد الوعي لدى شرائح عدة من غجر تركيا، فيما يخص حقوقهم وطقوسهم، وضرورة مساواتهم مع بقية الأتراك، إلى جانب الخدمات المقدمة لهم، فقد تأسست العشرات من منظمات المجتمع المدني الخاصة بشؤون الغجر، في محاولة للتأثير على الحكومة بتغيير بعض القوانين الصادرة في الثلاثينات من القرن الماضي والقاضية برفض تجنيس بعض الجماعات الغجرية.

بالمقابل عبّر الاتحاد الاوروبي عن قلقه بشأن غياب المساواة في التعامل مع الأقليات في تركيا. . ومنهم الغجر، حاثاً الحكومات التركية المتعاقبة على ضرورة الاعتراف بحقوق الغجر، واعتبرها خطوة هامة في طريق انضمام تركيا إلى الاتحاد الأوروبي.

رغم عدم وجود سجلات رسمية تؤكّد وصول الغجر إلى جزيرة قبرص، فإن التخمين التاريخي يؤكد وصول أولى الجماعات الغجرية بين عامَي 1322 و1400، خلال حركة التنقل بين آسيا الصغرى وأوروبا، وذلك لانتشار الطاعون في الأجزاء الشمالية من تركيا عام 1347.

واتسمت حياة الغجر بالبطالة باستثناء بعض المواسم التي ينتج

فيها رجالهم المسامير، و تنتج نساؤهم الاحزمة الجلدية لغرض بيعها على السكان المحليين.

أما الهجرة الثانية للغجر باتجاه جزيرة قبرص فكانت عام 1571، بعدما أصبحت قبرص على الطريق البحري الواصل من إيطاليا والمتجه صوب السواحل الفلسطينية.

امتهن الغجر بيع البضائع التي يصنعونها من خلال تجوالهم في المدن والقرى القبرصية. ومع اندلاع الحرب التي شهدتها قبرص بين الأتراك واليونانيين والتي أدت بالتالي إلى تقسيم الجزيرة إلى شطرين عام 1974، لتتغير حياة المجموعات الغجرية بشكل كامل، فلم يعد مسموحاً لهم عبور الخط الأخضر الفاصل بين الشطرين. وقد تعرض الكثير منهم لإطلاق النار من قبل الوحدات العسكرية المرابطة على الحد الفاصل.

تجارة الغجر تقلصت إلى حد كبير، مما حدا بالكثير منهم إلى العمل في قطف العنب أو حراثة الأرض في مواسم أخرى.

يبلغ عدد الغجر في جزيرة قبرص حوالى ألفين يقطن أغلبهم في الجزء التركي، خاصة في مدينتي «مورفو» و«فماغوستا» ويتحدث أغلبهم اللغة التركية، إلى جانب لغتهم الخاصة. أما غجر الجزء اليوناني من الجزيرة فيتمركزون عادة في مدينة «ليماسول» ويمتهنون بيع السلع أو العمل في الخدمات السياحية خلال شهور الصيف. ونتيجة الامتيازات التي يحصل عليها غجر الجزء اليوناني من الجزيرة، اجتازت عشرون عائلة غجرية الخط الأخضر قادمة من الجزء التركي بعد حصولها على موافقة مسبقة من السلطات

المختصة، الأمر الذي أثار رعب سلطات الجزء اليوناني خشية من هجرة «تركية» منظمة باتجاههم.

حالة الغجر في قبرص لا تختلف عن مثيلاتها في بقاع الأرض، فالتهميش والتمييز ما زالا العنوان الرئيس لتفاصيل الحياة التي يعيشون. في حين يبقى المفهوم التقليدي عن الغجر ماثلاً بقوة في أذهان شرائح واسعة من البشر، رغم كل الأعوام التي مرت وأثبتت بطلان الشائعات التي روّجت ضدهم.

أما الذين وصلوا إلى ألمانيا عام 1414 إثر تتبع نهر الدانوب، فقد عملوا في شتى الأعمال. وبعد ذلك التاريخ انتشر الغجر في عموم القارة الأوروبية. وخلال تجوالهم أبرز الغجر رسائل الحماية التي زودهم بها عدد من الحكام والنبلاء والتي تقضي بتقديم المساعدة والسماح لهم بدخول القلاع والمدن المغلقة. وكانت الجماعات الغجرية التي ظهرت في أوروبا في القرن الخامس عشر قد حصلت على تلك الرسائل، أصلية كانت أم مزورة. ومن أبرزها رسالة الحماية الصادرة عام 1493 عن سيغيسموند ملك هنغاريا وبوهيميا:

«نحن سيغيسموند ملك هنغاريا وبوهيميا ودالماشيه وكرواتيا.. وغيرها من الامصار. طلب منا الرئيس المسؤول عن الغجر.. لاديسلايس وممن يتبعونه، أن نكون شهوداً على رحمتنا الخاصة، وقد قبلنا طلبهم وزودناهم بهذه الرسالة. لهذا فيما قدم لكم لاديسلايس وأتباعه في أي مكان من امبراطوريتنا.. مدينة كانت أم قرية، نلزمكم بإبداء إخلاصكم نحونا، من خلال حمايتهم بأية

صورة ليتمكن الرئيس لاديسلايس وأتباعه من الإقامة ضمن حدودكم. وإن وجدت امرأة ثملة أو حدثت أية مشكلة بينهم، مهما كانت طبيعتها، فرغبتنا وقرارنا النهائي هو ان الرئيس لاديسلايس سيكون له الحِق وحده بإنزال العقاب أو الصفح دونكم جميعاً». [2]

كذلك الرسالة التي زودها بهم البابا مارتن الخامس والمؤرخة في الخامس عشر من كانون الأول (ديسمبر) عام 1423 والتي تنص على ضرورة تقديم المساعدة لهم من قبل الكنائس وأحبارها. وقد وجدت نسخة أصلية من الرسالة بين أوراق البابا بمكتبه الخاص بعد رحليه. [3]

صورة عن رسالة البابا مارتن الخامس

(2) Gypsies, An Illustrated History, Jean-Pierre Liegeois, Al saqi books, 1986, p. 41.

(3) Vaux de Foletier, F. de Le pelerinage romain des Tsiganes en 1422 et les lettres du papa Martin V in Etudes tsiganes no 4, 1965.

في عام 1419 وصلت إحدى جماعات الغجر إلى فرنسا وأطلقت عليهم تسمية «ساراسين». وهو الاسم ذاته الذي أطلق على العرب خلال الحروب الصليبية، وحظوا باستقبال يتّسم بالكرم وسمحوا لهم بنصب خيمهم. . وهم أولى الجماعات الغجرية التي دخلت فرنسا. لكنهم لم يصلوا إلى باريس إلا في العام 1427، ووصفت بعض الصحف الباريسية وجود الغجر بغزو أجنبي للمدينة دون حرب.

امتهن الغجر منذ وصولهم إلى فرنسا أعمالاً عدة، ولعل من أهمها التطوع في الجيش الفرنسي، كذلك القيام بأعمال الحراسة، واتسموا بالإخلاص والتفاني، ليصبحوا بعد ذلك أحد مكونات الشعب الفرنسي، غير أن الملك لويس الثالث عشر أمر بطردهم خارج الحدود الفرنسية. وإثر انتصار الثورة الفرنسية انتظر الغجر من الثورة أن تمنحهم جزءاً يسيراً من حقوقهم المستلبة، لكن تواصل عمليات السرقة والسلب التي كانت تلصق دوماً بالغجر، أبعدهم عن محور اهتمامات رجال الثورة وقضاياهم الأساسية. ووصل الأمر إلى أن الأجهزة الأمنية في العام الحادي عشر للثورة، جمعت أعداداً غفيرة من الغجر لغرض ترحيلهم إلى المستعمرات الفرنسية، ومع نشوب الحرب البحرية بين فرنسا ودول أخرى أرجئ تسفيرهم ثم أطلق سراحهم لاحقاً.

وتعاون الغجر مع المقاومة الفرنسية خلال الاحتلال النازي وقدموا لها كل أنواع المساعدة في نقل المعلومات والذخائر والمؤن. وكانت قوافلهم بفضل قدرتها على سرعة الحركة وبراعتها في خداع السلطات الألمانية المحتلة تزود رجال المقاومة ببطاقات تموين

مزورة وأوراق شخصية، كذلك قدم الغجر لرجال المقاومة العون في نسف القطارات العسكرية الألمانية، وإخفاء عدد كبير من طياري الحلفاء حتى التحرير.

في العام 1422 وصلت جماعة غجرية أخرى إلى مدينة بولونيا الإيطالية، ومارسوا مهناً عدة من أهمها قراءة الطالع، ولاقت المهنة رواجاً كبيراً، غير ان السرقة انتشرت هي الأخرى في المدينة، لتفرض الجهات المسؤولة فيها غرامة مالية وحرماناً كنسياً على كل من يتعامل مع الغجر، الأمر الذي دعا الغجر للرحيل إلى روما والحصول على رسالة من البابا مارتن الخامس يوصي بتقديم المساعدة إليهم.

الوثائق التاريخية ذاتها أشارت إلى أن الغجر وصلوا إلى بريطانيا عام 1430، وقدموا أنفسهم إلى الملك جيمس الرابع عام 1505 باعتبارهم حجاجاً من مصر، مما دعاهم الإنكليز بـ«جبسي» أي المصريين، وسرت تلك التسمية على الغجر لغاية الحاضر.

انتشر الغجر في الجزر البريطانية، وكان رد فعل السلطات المحلية قاسياً. فقد صدرت ضدهم العديد من القرارات الجائرة، ولعل أشدها الإجراء الذي اتخذته الملكة اليزابيث الأولى منتصف القرن السادس عشر، ويقضي بمغادرتهم البلاد خلال ثلاثة أشهر، وإلا سيتعرضون لعقوبة الإعدام.

وفي عهد الملك هنري الثامن تعرض الغجر لمصادرة بضائعهم عن طريق رجال الشرطة أو مساعدي النبلاء ليقدم نصفها إلى خزانة الملك، كما صدر مرسوم يؤكد أن من يعاشر الغجر تتعرض

ممتلكاته للمصادرة. وفي الوقت ذاته منعت السلطات المحلية في عدد من المدن الإنكليزية إقامة مخيمات الغجر إلا على بعد مئات الأمتار من التجمعات السكانية، وحرم عليهم استخدام مياه الجداول وإشعال النيران على جانبي الطرق.

وغجر بريطانيا هم من المتجولين ويطلق عليهم محلياً تسمية «المتجولون» أو الرحالة. وغالباً ما يمتهنون الحدادة والسمكرة وتجارة الخيول، أما النساء فقد وجدن سوقاً رائجة لقراءة الطالع والتكهن بالمستقبل.

ومنذ عام 1930 تعرض الغجر لسلسلة أخرى من حملات تعسفية، فقد فرضت بعض السلطات المحلية رسوماً باهظة على التجارة التي يمارسها الغجر. وفي عام 1950 سنت تلك السلطات قوانين خاصة تحد من حركة الغجر وأعمالهم. وإمعاناً في إيذاء الغجر واصلت السلطات سن القوانين التعسفية، خاصة ما يتعلق بعرباتهم، إذ أصدرت قانوناً عام 1968 يقضي بطرد الغجر ومنعهم من إقامة المخيمات الخاصة بهم، كما حددت مواقع بعيدة لتلك المخيمات. وكانت قد أصدرت عام 1964 قانوناً يتم بموجبه تقديم بيانات رسمية دقيقة من قبل الغجر حول الأعمال التي يمارسونها، والفوائد المالية التي يجنونها، بغية وضعهم على لوائح الضرائب المالية، الأمر الذي شكل عائقاً أمام الغجر لعدم معرفتهم للقراءة والكتابة، مما دفعهم إلى ترك الأعمال التقليدية.. والالتحاق بصفوف العاطلين عن العمل.

وفي عام 1971 انعقد المؤتمر الغجري الأول في العاصمة لندن، وتم في أعقابه تأسيس «الاتحاد العالمي الرومي» وانتخب

المؤتمر الشاعر الغجري اليوغسلافي سلوبودان بربرسكي رئيساً له، لتشكل البادرة الأولى لوحدة الجماعات الغجرية والبحث عن هويتها الضائعة.

ومع مطلع عام 1972 سنّت السلطات المحلية جملة قوانين المقصود منها تحجيم حركة الغجر وإجبارهم على الاستيطان. وقد أكّد باحثون سسيولوجيون أن تلك القوانين تهدف إلى تهميش الغجر وصولاً إلى إلغائهم بغية اكتمال صورة المجتمع البريطاني النمطية. الغجر من جانبهم تكاتفوا ضد تلك القوانين ومارسوا طقوسهم ضمن تفاصيل حياتهم المعتادة.

وفي نهاية القرن الماضي تأسست العديد من الجمعيات المعنية بحقوق الغجر. وأمام الضغط الشعبي بادرت الحكومة البريطانية إلى إصدار قانون خاص يعترف بحقوقهم الثقافية وإلزام السلطات المحلية بتحديد مواقع لمخيماتهم. كما منحت أفضلية اللجوء للغجر القادمين من دول البلقان إثر الحروب الأهلية التي شهدتها المنطقة نهايات القرن الماضي.

غجر اسكتلندا تطلق عليهم تسمية «تينكر» وتعني السمكري، وتدل المفردة على الحدادين الغجر المتجولين في اسكتلندا. وتتصف العلاقة بين سكان المنطقة والغجر بالفتور، رغم تغير أنماط حياة الغجر. ويواجه التينكر صعوبات جمة بفعل الضغوط الاقتصادية والاجتماعية، غير أنهم ما زالوا متمسكين بهويتهم. وأدّت طريقة معيشتهم إلى مجابهات مع السلطات المحلية حول مواقع مخيماتهم وممارسة طقوسهم الخاصة.

وفي العقود الأخيرة دأبت جماعات الضغط المؤيدة لحقوق الغجر على عرض قضيتهم أمام المحاكم والجهات المختصة. بالمقابل شعر الغجر في اسكتلندا أن الاستقرار في موقع معيّن قد يعمل على تحسين موقعهم الاقتصادي والاجتماعي مع الظروف الحياتية المستجدة ضمن القوانين المرعية والحصول على حقوقهم بشكل متساو مع بقية مكونات المجتمع الاسكتلندي، إلا أن جماعات غجرية أخرى رفضت تلك الخطط كونها تساهم في انصهار الغجر في المجتمع وضياع خصوصية هويتهم.

لم يصادف الغجر في الأعوام الأولى من تجوالهم في أوروبا أية صعوبات، ومع تعزيز سيطرة الإقطاع على مساحات شاسعة من الأراضي، ازدادت الحاجة إلى الأيدي العاملة الرخيصة، لذا لجأ الإقطاعيون إلى القاء القبض على القوافل الغجرية المارة بأراضيهم، محولين أفرادها إلى عبيد منذ مطلع القرن السابع عشر، خاصة في رومانيا، التي كان يطلق عليها حينذاك تسمية «ترانسيلفانيا» التي واجهت الغجر منذ البداية وحدّت من حركتهم، ولعل السبب الأهم يكمن في أن تلك الأقاليم تمتاز بثقافة لاتينية وصدّت على مدى ستة قرون متواصلة الغزوات التي حاولت إخضاعها.

وكان الغجر ومقتنياتهم ملكاً للإقطاعي، بما فيها حياتهم، بعدما حرموا من المواطنة التي اعتمدت على ملكية الأرض، في حين كان بعضهم ملكاً للدولة التي أجبرتهم على التنقيب عن الذهب وتنقيته في سفوح الجبال. بالمقابل كان لرجال الدين عبيد من الغجر، مبررين تلك الفعلة بأن الغجر قد حلّت عليهم اللعنة إثر مساهمتهم

في صلب المسيح وذلك بصنع المسامير الحديدية التي اخترقت كفيه وقدميه.

وكان ثمة سوق خاصة لبيع الغجر وعوائلهم، أما المخالفون أو المتمردون على الأوامر فكانت تنفذ بهم أقسى العقوبات، لكن العديد منهم استطاع الفرار خارج البلاد، أو الالتحاق بجماعات الغجر الخارجة عن القانون والتي تتخذ من سلسلة الغابات الجبلية الفاصلة بين رومانيا وهنغاريا مقراً لها.

لم يتم تحرير الغجر في رومانيا الا في عام 1856 بعد أن قدّم أحد النبلاء مسودة لالغاء عبوديتهم. واجهت المسودة رفضاً قوياً من قبل الإقطاعيين ورجال الدين، إلا أن الانتفاضة التي فجروها كانت السبب الرئيس لنهاية صفحة العبودية في كتاب حياة الغجر في رومانيا.

سياسة رومانيا في ظل النظام الاشتراكي لم تكن أقل قسوة بالنسبة للغجر، إذ لم يتم الاعتراف بهم كقومية وحرّم عليهم التمتع بحقوق الأقلية، وفرض عليهم الاستيطان الإجباري تحت قانون الانسجام المجتمعي، واندمجت قضيتهم ضمن المشاكل الاجتماعية الأخرى ليتم توزيعهم على المدن والقرى البعيدة بغية تفريقهم وإذابتهم في المجتمع.

واستخدمت القضية الغجرية في مرحلة المواجهة بين المعارضة السياسية ونظام تشاوتشيسكو، باعتبارها قضية عادلة تتطلب بذل المزيد من الاهتمام، في محاولة لاستقطاب قادة الغجر المتنفذين وبعض شرائحهم المثقفة القليلة. ومع انهيار النظام تراجعت حكومات الإصلاح عن وعودها، بل مضت بعيداً في سياسة عنصرية

معادية للغجر، إذ وجهت القيادات الجديدة أصابع الاتهام إلى الجماعات الغجرية بأنها مثيرة للفوضى والشغب، وتشكل خطراً على استقرار النظام، مما أدى إلى تبلور حملة رسمية منظمة مضادة للوجود الغجري في رومانيا. . تحت شعار «تشاوتشيسكو كان غجرياً» لتبدأ بعدها مباشرة حملات المطاردة والاعتقال والاضطهاد.

وكان الغجر قد اعتقدوا أن النظام الجديد سيعيد لهم الاعتبار القانوني ويعترف بهم كأقلية ضمن الأقليات الأخرى، لكنهم وجدوا أنفسهم محاصرين بنيران العنصرية الجديدة، مما حدا بالكثير منهم إلى النزوح مجدداً إلى دول أوروبا الغربية، خاصة ألمانيا، حيث شكلت نسبتهم 40 بالمائة من مجموع المهاجرين الرومانيين إلى ألمانيا. ووصفت تلك الهجرة البشرية بأنها الأوسع على مدى قرون عدة. ولعل الاتفاق الأمني بين رومانيا وألمانيا الذي بُدئ تنفيذه عام 1992 وينص على إعادة رعايا كل من البلدين إلى مواطنهم، واجه مشكلة أساسية تتمثل بأن الغجر لا يحملون أية ثبوتات رسمية أو وثائق سفر، كما أن جنسياتهم غير واضحة.

ثمة نزوح سابق للغجر في رومانيا كان قد سبق النزوح الأخير، لكنه كان مختلفاً، فقد فرضت سلطة تشاوتشيسكو على الغجر التخلي عن حياة الترحال وصادرت عرباتهم وأسكنتهم عنوة في مساكن بائسة صغيرة على أطراف المدن الكبيرة، وعوملوا كالخارجين عن القانون بعد أن اتهموا بارتكاب الجرائم وعمليات السرقات وخطف الأطفال.

ولعل أهم ما شهدته البقية المتبقية من غجر رومانيا مشاركة حزب «روميلور» الذي يمثل الغجر، في الانتخابات البرلمانية الأخيرة

في رومانيا، وحصل الحزب على عدد من الأصوات تؤهله الحصول على مقعد في البرلمان الروماني، علماً أن ثمة أربعة أحزاب غجرية أخرى شاركت في حمى الانتخابات لكنها لم تحظ بأصوات كافية للفوز. ويرجح زعماء الغجر سبب الانتكاسة إلى أن كثيرين من الغجر سجلوا أسماءهم كمواطنين رومانيين خشية تعرضهم للاضطهاد العنصري.

ينحصر وجود الغجر للمرة الأولى في السجلات التشيكية في القرنين الثالث عشر والخامس عشر، قادمين من جنوب ووسط أوروبا. وحاولوا مع بدايات وصولهم التأقلم مع النسيج الاجتماعي مع الاحتفاظ بتقاليدهم، إلا أنهم قوبلوا بالرفض وتعرضوا للاضطهاد والتفرقة لغاية مطلع القرن العشرين مع إعلان اتحاد تشيكوسلوفاكيا عام 1918، حيث صنفتهم القوانين ضمن الشعوب المتميزة بسمات خاصة ومنحتهم مساحة واسعة من الحرية، غير أن الأمر لم يكن كذلك على الصعيد الشعبي، بعدما ظلت الهوة الفاصلة بين الطرفين سحيقة، رغم القوانين الرسمية.

واجه الغجر منذ الغزو النازي لتشيكوسلوفاكيا حرب إبادة شرسة. وقد تم اكتشاف دلائل موثقة تشير إلى أن آلاف الغجر قد قتلوا خلال تلك الاعوام، حيث تم تصفيتهم في معسكرات الاعتقال، خاصة معسكر «برنو» كما أن هناك ما يقارب 4 آلاف غجري أُرسلوا من معسكرات محلية إلى معسكر «اوشفيتز» لغرض قتلهم.

ومع اندحار الفاشية وانتهاج تشيكوسلوفاكيا الاشتراكية عام

1949 قدمت السلطات الجديدة للغجر حزمة كبيرة من الامتيازات تتعلق بوضعهم الاجتماعي والتعليمي والاقتصادي، لكنها في الوقت ذاته أنكرت استقلال خصوصيتهم الثقافية، فقد تمّ تعريفهم في قاموس اللغة التشيكية الصادر مطلع الخمسينات من القرن الماضي، بأنهم شعب ضائع يمتهن السرقة والغش والخداع. وفي عام 1958 أصدرت السلطات المختصة قانوناً يقضي بمنع الغجر من التنقل والترحال، في محاولة لصهرهم ضمن نسيج المجتمع والاستفادة من قواهم في بناء الدولة. وبعد سبعة أعوام أسست السلطات المختصة ذاتها مجلساً خاصاً بالغجر لإيجاد الحلول لمشاكلهم، وواجه المجلس رفضاً كبيراً من قبل الغجر، الأمر الذي بلور أحد أهم الأسباب لمشاركة جماعات واسعة من الغجر في أحداث ربيع براغ عام 1968، حيث سارعوا إلى تشكيل منظمات مستقلة تعنى بقضاياهم والضغط على الحكومة الجديدة للاعتراف بحقوقهم القومية. غير أن سقوط الحكومة أعاد أوضاعهم إلى نقطة البداية مجدداً، خاصة مع إلغاء المنظمات الغجرية وحظر نشاطاتها.

أوضاع الغجر استمرت بالتدهور، الأمر الذي دعا ميثاق 1977(*) إلى الاعتراف بوضعهم المأساوي، مشددة على أهمية منحهم حقوقهم القومية. ومع انهيار النظام الشمولي في تشيكوسلوفاكيا عام 1989 طالب الغجر النظام الجديد بضرورة إنصافهم بعد قرون طويلة من الاضطهاد، خاصة اثر اعتلاء الشعور القومي سطح الحياة السياسية في البلاد، وانفصال تشيكيا عن

(*) لجنة خاصة أسّستها مجموعة من المثقفين، منهم الكاتب المسرحي والرئيس التشيكي السابق فاتسلاف هافل عام 1977 وسمّيت بلجنة هلسنكي للمراقبة.

سلوفاكيا عام 1991. ومع التغييرات الاقتصادية وانعكاساتها الاجتماعية القاسية، غدا الغجر الضحية الأولى لها، إذ حفزت فيهم نوازع الكسب السريع والإثراء غير المشروع، ليقع الكثير منهم في براثن الجريمة والسرقة المنظمة.. وليتسع النفور منهم حتى وصل إلى الكثير من الأوساط الرسمية. بالمقابل استطاع الغجر إيصال ناخب يمثلهم في أول دورة برلمانية بعد سقوط النظام الشمولي، كما نجحوا في الحصول على دعم عدد من منظمات المجتمع المدني وحقوق الإنسان.

وتكللت تلك النجاحات بإقرار البرلمان لائحة حقوق الإنسان والحريات المدنية عام 1991 التي أصبح الغجر بموجبها أقلية تتمتع ببعض الحقوق.

موجات الكراهية المعززة بالعنف تواصلت ضد الغجر، خاصة مع زيادة نسبة البطالة وتفاقم الأزمات الاقتصادية، فكان الغجر بمثابة الورقة الرابحة لصرف الأنظار عن المشاكل الحقيقية التي كانت تحاصر البلاد إثر التغييرات المفاجئة، حيث انطلقت شعارات عدائية ضد الغجر وشملت حرق منازلهم وقتل العديد منهم وطردهم من العمل. وأظهر استفتاء للرأي العام في تشيكيا أن الغجر جاءوا في آخر قائمة الأقليات التي تتمتع بود الأكثرية، كما رفض أكثر من نصف ممن شملهم الاستفتاء حصولهم على حقوق موازية للمواطنين في تشيكيا.

وتشير تقارير المنظمات الدولية المعنية بحقوق الإنسان إلى أن في تشيكيا وحدها أكثر من 10 منظمات وحركات عنصرية تشن حرباً شعواء على الغجر، وتطور الأمر ليصل إلى تبنّي الحزب الجمهوري

(القوة السياسية الرابعة في البلاد) شعارات الحركات العنصرية، إذ أعلن تأييده بقوة لاستخدام العنف ضد الغجر، خاصة في مناطق شمال بوهيميا، التي تضم أعداداً كبيرة من الجماعات الغجرية، ووصل الأمر إلى رصده جوائز مالية لمن ينفذ أكبر عدد من عمليات العنف ضدهم.

المنظمات الدولية أكدت من جانبها أن الحركات العنصرية تخطو حثيثاً لتنظيم خلاياها والتقدم بطلبات تسجيلها رسمياً. في الوقت ذاته زاد عدد الجرائم بكثير عما تعلنه وزارة الداخلية، ويشكل النساء والأطفال العدد الأكبر لضحايا تلك الاعتداءات. وغالباً ما تتقاعس الشرطة عن التدخل أو التحقيق في الحوادث بجدية. وما زالت السجون تعج بالغجر بسبب الموقف المسبق ضدهم من قبل أجهزة الأمن والشرطة.[4]

وتنتشر عادة أعداد هائلة من رجال الشرطة في الشوارع والميادين العامة ومحطات القطار في المدن الرئيسة «لتنظيفها» من الأجانب.. وتنتهي تلك الحملات باعتقال الآلاف من الغجر.

ولعل الأزمة الأخطر التي حاصرت الغجر منذ انقسام تشيكوسلوفاكيا إلى دولتين، هي أن الأولى استبعدت الغجر عن الإحصاء السكاني ممن انتقل للعيش في الدولة الثانية، وبذلك حرموا من حق العمل والرعاية الصحية وحرية التنقل، وغيرها من الحقوق الأساسية. في حين رفضت الثانية تسجيلهم رسمياً في سجلاتها واعتبارهم ضمن مواطنيها. لتغدو بعدها جماعات كبيرة من الغجر

---

(4) Amnesty International News Letter. Feb. 2006

من «المشطوبين» من قوائم السجلات المدنية الخاصة بمواطني كلا الدولتين.

ينقسم غجر إسبانيا إلى فئتين أساسيتين، ووجدتا في النصف الثاني من القرن الخامس عشر. الفئة الأولى هي «خيتانو» التي قدمت من شمال أفريقيا عبر مضيق جبل طارق متتبعة الساحل الجنوبي للبحر المتوسط، أما الفئة الثانية فوصلت إلى إسبانيا قادمة من أوروبا مروراً بإقليم الباسك. وثمة اختلافات بين الخيتانو والفئة الأخرى من الغجر، كما أن اللغة المستخدمة لكل منهما مختلفة تماماً، فالخيتانو يتحدثون بلهجة تستند إلى لغة الروماني والمطعمة بعدد كبير من المفردات الاسبانية، واستقرت في الجنوب الإسباني، بينما توزعت الثانية شمال ووسط إسبانيا، حيث وصلوا إلى برشلونة عام 1452، في حين وصلت الفئة الأخرى إلى الجنوب الإسباني (الأندلس) قبل هذا التاريخ، وذلك لتباعد المسافة بين الطريقين والزمن الفاصل بين المسيرتين.

ويشير عدد من الباحثين إلى أن تسمية خيتانو، التي أُطلقت على الفئة الأولى من الغجر، هي تعبير محرف عن مفردة «اكيبتانو» أي المصريين، ولكن ليس ثمة دلائل علمية تؤكد صحة هذا الاعتقاد.

لم تكن الظروف ملائمة تماماً للخيتانو في إسبانيا، فقد صدر قانون عام 1499 يقضي بمعاقبة كل غجري لا يملك مهنة لكسب العيش، وبعد ثلاثة عقود صدر مرسوم اخر يهدد الغجر المشردين بعقوبة الاعتقال اذا لم يكن لديهم مأوى صالح للإقامة. وفي نهاية القرن السادس عشر أصدرت السلطات العديد من القوانين

والتشريعات تحدّ من حرية الغجر في اقامة طقوسهم التقليدية.

القرن السابع عشر لم يكن أفضل من سابقه، فقد أصدر الملك فيليب الرابع قراراً يحظر على الغجر استخدام لغتهم وارتداء ملابسهم الخاصة وممارسة شعائرهم، كما أمر بتوزيعهم على المدن الإسبانية تحت ذريعة إصلاحهم إثر الشائعات التي سرت بأنهم مسيحيون خونة ومن كبار اللصوص. وتكرست القوانين التعسفية ضد الغجر مع نهايات القرن بعدما سنّت السلطات الإسبانية جملة قوانين يمنع الغجر بموجبها من حمل السلاح وامتلاك الخيول والعمل في مهنة الحدادة.

حالة حصار الغجر في إسبانيا ظلت قائمة ومتزايدة لغاية عام 1783 بعدما نجح الملك شارل الثالث في تطبيق التقليد الذي أرسته ملكة هنغاريا ماريا تيريزا بتوطين الجماعات الغجرية مع الحفاظ على خصوصية حياتهم، ويعودوا إلى مزاولة مهنهم السابقة، وإضافة مهن أخرى أتقنوها من خلال اختلاطهم بالإسبان كمصارعة الثيران والغناء ورعي الماشية والعديد غيرها.

ورغم الحقوق التي حصل عليها غجر إسبانيا منذ ذلك التاريخ، فإن عقدة الخوف ظلت تلاحقهم، ليهاجروا على هيئة جماعات إلى أمريكا الجنوبية، مختارين عقدة الخوف من البحر على عقدة الخوف المتواصلة في اليابسة، ليأسسوا بعدها مستعمرات في البرازيل وتشيلي وفنزويلا والبيرو.

أولى الإشارات التاريخية على وجود الغجر في روسيا تعود إلى العام 1501، بعد أن منحتهم الامبراطورة كاترينا كياناً ذاتياً مستقلاً وليغدوا من اقنان التاج الروسي، لكنهم لم يتعرضوا لأي نوع من

الاضطهاد، غير أنهم منعوا من دخول مدينة بطرسبورغ كجماعة، رغم أن العديد من الفنانين الغجر قد استقر فيها. بالمقابل انتشرت الجماعات الغجرية في جنوب روسيا، خاصة بحر قزوين والقفقاس. وعمدت بعض المدن إلى توطين الغجر من خلال إنشاء مستعمرات سكنية خاصة بهم.

وفي نهايات القرن التاسع عشر توزعت خيام الغجر في ضواحي العاصمة موسكو، بعد أن وجد الكثير منهم عملاً في المصانع التي توسعت آنذاك حول المدينة.

حاد الغجر في روسيا عن الزلازل السياسية التي شهدتها البلاد مطلع القرن العشرين، خاصة الثورة البلشفية. وتم الاعتراف بهم كقومية في بداية العهد السوفياتي، غير أن ستالين رفض هذا الاعتراف وقلص الكثير من حقوقهم وألغى تجمع «اتحاد جميع الغجر في روسيا» الذي تأسس بعد الثورة مباشرة، وفرضت الدولة عليهم سياسة الاستيطان الإجباري، إلا أن تلك السياسة سرعان ما فشلت بعد مواجهتها من قبل الشريحة المثقفة من الغجر.

من جانب آخر نجح الغجر في إحراز نجاحات متواصلة داخل المجتمع الروسي، حيث حصل العديد منهم على شهادات في الطب والهندسة والعلوم، كما أسسوا مسرحاً عريقاً منذ عام 1925 قدمت فيه أفضل الأعمال الروسية بلغتهم الخاصة، واستطاعوا أيضاً إصدار العديد من الدوريات الخاصة بثقافتهم وطقوسهم بلغتهم «الرومني» إلى جانب اللغة الروسية.

رسخت التغييرات السياسية التي شهدتها روسيا في تسعينات القرن الماضي، تدنّي أوضاع الغجر واتساع ظاهرة التمايز القومي

ضدهم، إضافة إلى شيوع العنف العنصري الذي غالباً ما تنظمه جهات ليست بعيدة عن واجهات رسمية.

ورغم أن الحد الأدنى من حقوق الغجر كانت مضمونة في الأنظمة السابقة بدوافع شتى من أهمها تقليل التفاوت الاجتماعي بينهم وبين شرائح المجتمع الأخرى، كما أن بعض السياسات الحكومية قد نالت حظاً من النجاح في ميادين معينة، الا أنها لم تحقق الغايات المطلوبة التي طالب بها الغجر على الدوام.

ويعاني الكثير من غجر روسيا اليوم من البطالة والفقر المدقع والرفض الاجتماعي والإذلال العنصري، خاصة مع انتشار المنظمات العنصرية بين الشباب البيض العاطل عن العمل، بعد أن ساهمت صحافة الإثارة في تأجيج الروح العنصرية لدى شرائح واسعة في المجتمع الروسي، محملة الغجر مسؤولية الإحباطات الاجتماعية والتردي الاقتصادي.

ويسعى غجر روسيا حالياً إلى الاعتراف بهم كقومية تحظى بالحقوق الثقافية المشروعة كالتعليم بلغتهم في مدارس خاصة وممارسة حقوق المواطنة بشكل كامل، كذلك تأسيس مؤسساتهم القانونية الخاصة، بعد أن استبعدوا المطالبة بحكم ذاتي إثر التراجعات التي حاصرت حياتهم منذ انهيار الاتحاد السوفياتي وشيوع ظاهرة الكراهية ضدهم بصورة تثير القلق.

في مطلع القرن الخامس عشر وصل الغجر إلى ألمانيا بوصفهم حجاجاً، حيث تم استقبالهم بحفاوة كبيرة بعد أن أطلق رؤساء الغجر على أنفسهم ألقاباً فخمة. ولمدة نصف قرن استمرت العلاقة

الحميمة بين الطرفين، لتثار بعدها سلسلة طويلة من المشاكل، خاصة إثر ازدياد حوادث السرقة والاحتيال التي نفذها الغجر أينما حلوا. . مما ساهم في ترك الانطباع السيّئ لدى الألمان عن الغجر، ليتحول فيما بعد إلى نزوع عدواني وعنصري قل نظيره، حيث وجهت أصابع الاتهام إليهم عن كل الأمراض الوبائية التي اجتاحت ألمانيا حينذاك.

بدأت الإجراءات القاسية تلاحق الغجر عام 1463، وازدادت القوانين العدائية ضدهم، حيث قدمت مدن عدة في إقليم بافاريا سبع ليرات كتعويض مالي للغجري الذي يترك الإقليم. وأصدر الكثير من الأمراء قوانين تمنع الغجر من السكن في مقاطعتهم أو حتى المرور في أراضيها، كما منع ممثلو الامبراطورية في الأقاليم الألمانية من تقديم أية مساعدة للغجر. . ومنحت الجماعات الغجرية مهلة زمنية مدتها ثلاثة أشهر لمغادرة ألمانيا، وفرضت عقوبات صارمة تصل إلى حد الإعدام في حال عدم تنفيذ القرار. وانضم رجال الدين إلى حملة السلطة باعتبار الغجر من الخارجين عن الإيمان.

اتسم القرن الثامن عشر بموجة عارمة من العنف ضد الغجر، حيث أقيمت مشانق على مفترق الطرق تهدد الجماعات الغجرية بالموت إذا ما رفضوا ترك البلاد.

تصاعدت موجة التمييز العرقي في ألمانيا ضد الغجر بنسب عالية، خاصة في عهد بسمارك الذي يعتبر السياسي الأول الذي شرع قوانين التفرقة بين الغجري الاصلي والغجري الأجنبي، ليغدو القانون فيما بعد أداة لطرد غير المرغوب فيهم من الغجر، حتى أولئك الذين ولدوا في ألمانيا. ويعتبر الأمير فريدرك ويليام الأكثر عنفاً في قوانينه

ضدهم، إذ أقرّ عام 1886 قانوناً يقضي بإعدام كل غجري يدخل مقاطعته.

وتحت تسمية «منحرفون اجتماعيون» تم إدراج الغجر في القوانين التي وضعت خصيصاً لأصحاب العاهات (أولى ضحايا الإبادة الجماعية) بعد هيمنة الحزب النازي على مقاليد السلطة في ألمانيا. وفي الفترة الزمنية الفاصلة بين عامَي 1937 و1944 اعتقلت السلطات الألمانية أعداداً هائلة من الغجر لتودعها في معسكرات الموت، ليكونوا ضحايا غرف الغاز.. تحت ذريعة أنهم عناصر منحطة وغير متحضرة.

استمرت رحلة الغجر في أوروبا لتصل إلى فنلندا، بعدما مروا بالسويد والنرويج والدنمارك. واعتبر الغجر فنلندا نهاية الأرض، خاصة عندما اصطدموا بحاجز الظروف المناخية الصعبة، وهرباً من الحرب الأهلية بين أتباع الملك سيغموند وشارل الخامس الذي خلفه على العرش، مما اضطرهم للنزوح غرباً ثم التوجه نحو الجنوب، ليتوزعوا في الدول الاسكندنافية، لكن السلطات السويدية أمرت بطردهم خارج حدودها عام 1727 نتيجة ممارستهم طقوس السحر وقراءة الطالع، غير أنهم هربوا نحو الغابات ومكثوا فيها مدة زمنية ليست بالقصيرة. بالمقابل شرعت الدنمارك عام 1589 قانوناً يقضي بإعدام قادة الغجر. وبعد قرن كامل أمرت السويد بإعدام كل ذكور الغجر، لتسنّ بعدها دول أوروبية عدة تشريعات مشابهة تتسم بالقسوة المفرطة ضد جماعات الغجر.

عمليات الاضطهاد العرقي ضد الغجر استمرت في الدول

الأسكندنافية فترة زمنية طويلة، كان لها الأثر البالغ في حياتهم، وجعلتهم في صراع دائم من أجل البقاء، ووصل الأمر بهم إلى البحث الدائم عن منافذ في القوانين التي تحاصر تقاليدهم وطقوسهم. وقد دفعتهم الحاجة الماسة والأوضاع المزرية إلى تشكيل عصابات واللجوء إلى السرقة والسلب.

الكنائس في الدول الاسكندنافية هي الأخرى اتسم موقفها حيال الغجر بالتشدد، حيث عمدت إلى تعميد أطفالهم وتوثيق أواصرهم مع الكنيسة لتنشئتهم بصورة سليمة.. حسب رأيها. ومنذ مطلع القرن العشرين حاولت السلطات المختصة في الدول الاسكندنافية إنشاء مدارس متنقلة ترافق الجماعات الغجرية خلال تنقلها خاصة في شهور الصيف، كما أنشأت مدارس أخرى دائمة بجوار المخيمات التي يقيمون فيها في فصل الشتاء.

النرويج هي الأخرى سارت على النهج ذاته ولكن بفعالية أقل بكثير عما هو معمول به في السويد، إذ يلزم القانون النرويجي العوائل بإلحاق أطفالهم في المدارس حتى نهاية المرحلة المتوسطة، مستثنية أطفال الغجر، وكانت النتيجة وجود شريحة أمية واسعة بينهم. وتلقي السلطات النرويجية المسؤولية بشكل كامل على كاهل الغجر باعتبارهم المسؤولين عن ضياع فرص تعليمهم، معتقدين أن التعليم يؤثر سلباً على عاداتهم وثقافتهم. بالمقابل يطالب الغجر الحكومة النرويجية بضرورة دفع تعويضات مالية إلى الذين حرموا من فرص التعليم.

وصل الغجر إلى بولندا في النصف الثاني من القرن الرابع

عشر.. أي قبل إنشاء مدينة وارسو، خلال طوافهم في شمال القارة الأوروبية. وواجهوا الكثير من الصعاب من قبل حكام المقاطعات والإقطاعيين الذين أمروا بطردهم وإيقاف هجرتهم. ومع مطلع القرن السادس عشر تغيرت النظرة السائدة تجاههم، وأصدرت الدولة الكثير من قرارات العفو عنهم، بعدما سمحت لهم بالإقامة والعمل.

حالة التعايش بين الغجر والبولنديين تواصلت على المنحى ذاته، رغم أن الكثير من الأزمات قد شابت تلك العلاقة، لكنها لم تصل إلى حدود العنف على نطاق واسع.

وتحت مطرقة الاحتلال النازي لبولندا، عاش الغجر سنوات في غاية الصعوبة، خاصة مع موجة الاعتقالات التي طالتهم ليودعوا في معسكرات الاحتجاز التي أُنشئت في مناطق متفرقة من البلاد.. ومن أهمها معسكر أوفشيتز، حيث كان الغجر الضحية الأسهل، فقد تم إلغاء قسم العوائل، إثر شحن العديد من شباب الغجر إلى المصانع الألمانية، في حين تم حرق كبار السن والمرضى والأطفال، في أفران الغاز.

نال الغجر في العهد الشيوعي هامشاً ضيقاً من الحرية ومنحت لهم امتيازات لا يمكن مقارنتها بحجم معاناتهم، فقد استفاد الكثير من العوائل من فرص التعليم الرسمي المجاني والخدمات الأجتماعية المقدمة من قبل الدولة، وبرع عدد منهم في مجالي الفن والأدب، ولكن دون الاعتراف بهم كقومية تمتلك مقومات خاصة.

انهيار النظام الشمولي نهاية عقد الثمانينات من القرن المنصرم، وما رافقه من تغييرات اقتصادية حادة، طبع حياة الغجر بمأساة جديدة تمثلت باضطهاد وتمييز قومي، خصوصاً مع تنامي قدرات الحركات

العنصرية بين الشباب والعنف المتزايد باضطراد ضد تجمعات الغجر السكنية. فجدران العاصمة وارسو وعدد آخر من المدن البولندية غالباً ما تحمل شعارات تفضح حجم الكراهية ضدهم.

وتمارس السلطات الأمنية سياسة شوفينية تجاه الغجر. ويذكر تقرير لمنظمة العفو الدولية أن الاعتداءات على الغجر في بولندا تصل إلى الحد الذي يطال كل غجري يقدم شكوى ضد أحد أفراد الشرطة نتيجة معاملة سيئة طالته. وهناك على الدوام حجج وتهم جاهزة من قبل رجال الشرطة أو حتى من قبل أفراد من المجتمع تجاه الغجر. وما زالت سياسة التهميش الاجتماعي والتمييز في الوظائف واضحة المعالم، كما أن فرص العمل نادرة للكثير منهم، مما دفع بعضهم إلى التسول أو البحث عن فتات الطعام في أكوام القاذورات.

يبلغ عدد الغجر في بلغاريا وفقاً للإحصاءات الرسمية نحو مليون، في حين تبلغ نسبتهم حوالي 17 بالمائة من إجمالي عدد المسلمين. وكان الغجر قد تعرضوا منذ وصولهم إلى بلغاريا مطلع القرن الخامس عشر، لموجات متواصلة من التمييز والاضطهاد العرقي، إلى درجة أن العديد من المدن والقرى رفضت استقبالهم، غير أن ارتباط الأدوات التي يصنعها الغجر بالعمل اليومي للفلاحين قلص الفجوة فيما بينهما.

وخلال الاحتلال النازي لبلغاريا واجه الغجر حملة منظمة من الأعتقالات والتصفية، حيث شحن الكثير من العوائل الغجرية إلى معسكرات الموت في الدول المجاورة التي كانت هي الأخرى ترزح تحت الأحتلال النازي.

وإثر تحرر بلغاريا وتسلّم الشيوعيين السلطة وضعت المؤسسات الاجتماعية المختصة مجموعة من الخطط التي تفرض على الغجر الاستقرار والعمل ضمن مصانع أو مزارع مملوكة من قبل الدولة، والتخلي عن الكثير من العادات والتقاليد الخاصة بهم.

لم تنجح خطط الحكومة بالكامل رغم القوة المرافقة لتنفيذها.. واستمرت من جانب آخر النظرة التعسفية إلى الجماعات الغجرية في بلغاريا، إلى درجة أن ثمة قانوناً غير مدوّن بدأ تنفيذه عام 1978 يحظر على البلغار الأصليين الاختلاط بالغجر، كذلك يمنع ذكرهم في وسائل الإعلام.. وبالتالي أصبح الغجر مطالبين بتغيير اسمائهم، ولم يعد مسموحاً لهم التكلم بلغتهم الخاصة أو حتى عزف موسيقاهم.

ومع التغييرات السياسية التي اجتاحت بلغاريا على غرار دول المعسكر الاشتراكي نهاية عقد الثمانينات ومطلع التسعينات من القرن الماضي وانهيار الانظمة الشمولية، استطاع الغجر تشكيل عدد من المنظمات الاجتماعية والحقوقية طالبت النظام الجديد بضرورة منحهم الحقوق القومية وتحسين شروط حياتهم.

وفي عام 1992 أقرّت الحكومة الجديدة قانون إعادة الأراضي التي صادرها النظام السابق إلى أصحابها الأصليين، واستثنى القانون الغجر دون أي تفسير حقيقي.

ويشكو الغجر من التميز العنصري ضدهم، فالجميع يعاملونهم بطريقة مختلفة، ولا تُراعى في التعامل معهم أية حقوق إنسانية. فضرب الغجر والاعتداء عليهم إلى حد القتل.. حوادث تتكرر باستمرار في بلغاريا، رغم انضمامها مؤخراً إلى الاتحاد الأوروبي.

ومع إعلان 2007 «السنةَ الأوروبية لتكافؤ الفرص» ما زالت كلمة «الغجر» تحمل بين طياتها الكثير من المعاني السلبية في عدد غير قليل من دول الاتحاد، وما زالت التوصيفات القديمة الملتصقة بهم، مثل الكذب والغش والسرقة وخرق حظر التجوال، قائمة.

خطط الحكومة البلغارية الجديدة لتشجيع العمل بين الجماعات الغجرية غالباً ما تصل إلى منافذ مغلقة بسبب انعدام الكفاءات وجهل التعامل مع المؤسسات الرسمية والمالية وانعدام التخطيط. ونتيجة لكل تلك الأسباب ينغلق الغجر في غيتوات معزولة.

وفي محاولة لإلغاء الإقصاء الاجتماعي ضدّهم أقرّت الحكومة برنامجاً لتحسين ظروف سكن الغجر، خاصة في منطقة «فاكولتيتا». . المستوطنة الأوسع للغجر في العاصمة صوفيا، رغم مطالبة عدد من نواب البرلمان وقيادات الأحزاب العنصرية بإزالة المجمعات السكنية الخاصة بهم في منطقة « زاهرنا فابريكا». في الوقت ذاته أعلن «الاتحاد الوطني البلغاري» وهو حزب هامشي، عن تشكيل ما يشبه الميليشيات تحت ذريعة الدفاع عن المواطنين البلغار من اعتداءات الغجر.

أشارت منظمة هلسنكي المعنية بحقوق الإنسان في تقاريرها إلى تزايد حالات التمييز ضد الغجر في بلغاريا، مؤكدة أن تصريحات عدد من السياسيين البلغار ضدهم قد تشجع على عمليات الاضطهاد والعنف التي تستهدفهم، خاصة من قبل المنظمات العنصرية المعروفة باسم «سكن هيد». . ذوي الرؤوس الحليقة.

ويحتل الغجر مقعدين في البرلمان البلغاري المكون من 240 مقعداً، في حين أن تسعة من كل عشرة من الغجر عاطلون عن

العمل. ويتهمهم البلغار بأنهم كسالى وغير منتجين. ويرد الغجر بأنه ليس هناك من يقبل بهم في سوق العمل، أو يرغب في التعامل معهم.

وشهدت بعض مدن بلغاريا مواجهات بين شباب من أصول غجرية وآخرين من منظمات «حليقي الرؤوس». وعلى هذا الصعيد، وجّه زعماء أحزاب ينتمي إلى عضويتها مواطنون بلغار من اصل غجري، نداء إلى الحكومة لاتخاذ ما يلزم من إجراءات لتوفير الظروف لاندماج الغجر داخل المجتمع البلغاري، خاصة أن الأحداث التي شهدتها البلاد تدل على وجود توتر عرقي يتسم بالجدية.

بطبيعة الحال ثمة أطباء وشعراء وكتّاب وفنانون وأساتذة وغيرهم من الغجر ممن يدعون إلى عهد جديد من الوعي، مؤكدين إسهامات الغجر في الفنون والموسيقى والأدب.. إضافة إلى مجالات حياتية أخرى.

يعيش غجر ألبانيا في عزلة.. رغم ارتباطهم مع بقية الألبان بأواصر وطيدة تعود أسبابها إلى التضامن ضد القمع الذي طالهم جميعاً، وسنوات القحط التي غلفت حياتهم على مدى أعوام طويلة.

وتتوزع أربع جماعات غجرية في ألبانيا، وثمة فوارق طبقية فيما بينها، غير أن جماعة «الجفغر» تحتل القاع تماماً من بين تلك الجماعات، ويمتهن أفرادها في الغالب الأعم التسول.. والسرقة أحياناً.

اعتنق غجر ألبانيا الإسلام ليشاطروا الغالبية حياتهم وسلوكهم

على أمل تجنب الاضطهاد والحصول على مكاسب تقيهم من شرور التمييز. لكنهم بصفة عامة غير متديّنين وثقافتهم الروحية مطعمة بكثير من الخرافات المستمدة من ماضيهم.

ساء الوضع كثيراً بالنسبة لغجر ألبانيا منذ سقوط النظام الشيوعي عام 1991، حيث انحسرت المساعدات الشحيحة التي كانت تقدم لهم، وتقلص هامش الحرية الثقافية الذي كانوا يتمتعون به، رغم انتقال ألبانيا إلى التعددية ورأسمالية السوق، ليظل الغجر في أكواخهم الموزعة في الأحياء الأشد فقراً في ألبانيا الفقيرة اصلاً.

ويذهب أطفال الغجر عادة إلى المدارس الرسمية الخاصة بذوي الاحتياجات، مما يعرقل تعليمهم بالشكل المطلوب ويؤخر التحاقهم بسوق العمل. بالمقابل لا تكفي المدارس التي أنشأتها منظمات عالمية عدد اطفال الغجر، مما يدفع عدداً كبيراً منهم إلى البطالة والتشرد والجريمة.

على الصعيد الاجتماعي ونتيجة تفشي الفقر انخفضت نسبة الزواج بينهم بنسب ملحوظة للغاية، إذ كشفت دراسة أجراها صندوق التنمية التابع للأمم المتحدة أن معدل دخل الغجري أقل من نصف معدل دخل المواطن الألباني.

وخلال الحقبة الشيوعية أُجبر الغجر كغيرهم من المواطنين الألبان على العمل في مصانع الدولة، كما أُجبروا على إرسال أطفالهم إلى المدارس، إلا أنهم اليوم لم يجدوا من يقبل بقوتهم كأيد عاملة، في حين رفضت المدارس الرسمية قبول أطفالهم بحجج واهية.. أكثرها تراجيدية أنهم يأتون إلى المدرسة بملابس رثة،

لتنخفض على إثرها نسبة التعليم بينهم إلى 57 بالمائة بين الإناث و48 بالمائة بين الذكور.

الظروف السيئة المحيطة بحياة الغجر في ألبانيا دفعتهم للهجرة إلى الدول المجاورة، خاصة اليونان، لكن الحياة هناك لم تكن أقل سوءاً في العثور على عمل مستقر أو سكن مناسب، كما أنهم يجابهون خطر الترحيل من قبل السلطات الأمنية اليونانية، رغم أنهم من مواطني الاتحاد الأوروبي.. الأمر الذي دفع الكثير منهم إلى ممارسة التسول أو السرقة أو العمل كأجير يومي بعيداً عن الطرق القانونية، مما يعرّضهم لاستغلال بشع قل نظيره.

المتاجرة بالأطفال وتنظيم عمليات الدعارة هي الأخرى طافت على سطح حياة الغجر في ألبانيا، حيث أكدت تقارير لمنظمات دولية معنية بحقوق الانسان، أن عوائل غجرية ألبانية باعت اطفالها إلى أخرى في إيطاليا، بينما أصبحت فتيات غجريات صغيرات السن تحت إمرة عصابات المافيا لغرض تهريبهن خارج البلاد لممارسة الدعارة في دول أوروبية عدة مقابل عوائد مالية تافهة تمنح لعوائلهن.

يعود وجود الغجر الأوائل في البرازيل إلى القرن السادس عشر، إلا أن الدراسات التاريخية لم تذكرهم بصورة ماثلة. وكان أنطونيو ديتوريس أول غجري يطأ البرازيل عام 1574، ومع تزايد أعدادهم إثر الهجرة المنظمة من إسبانيا والبرتغال، غدوا شريحة اجتماعية متميزة، وشغل العديد منهم مناصب مهمة في سلّم المجتمع البرازيلي.

ينتمي غجر البرازيل إلى عدد من المجموعات، منها «بنداريس»

التي وصلت إلى مناطق بعيدة من البلاد، حتى تلك المجهولة، بحثاً عن الذهب والأحجار الكريمة. أما الأخرى فهي مجموعة «كالدرايش» وتعتبر من أغنياء الغجر، بينما تمتهن مجموعة «ماتشويا» أبسط أنواع المهن. «روداري» هي المجموعة الرابعة القادمة من رومانيا وتقطن مدينتي «سان باولو» و «ريو دي جانيرو». في حين قدمت المجموعة الخامسة «هوراهان» من تركيا واليونان، وتمتهن بيع السلع التي تنتج في الأحياء السكنية. وثمة مجموعة أخرى تدعى «لوفارا» ويعتقد أنها قدمت من ايطاليا.

وفي الفترة الزمنية التي اتسعت فيها تجارة الرقيق، غدا الغجر ضحية لها، بعدما صنفوا ضمن العبيد، فاستخدموا في الترسانات البحرية وفي الأشغال الشاقة كأعمال الملاحة البحرية والمناجم وبناء السفن، وهلكت أعداد كبيرة منهم جراء ذلك السلوك. واستخدمت البرتغال ضدهم سياسة الترحيل إلى مستعمراتها وراء البحار في أفريقيا والبرازيل كأسلوب مبتكر لطردهم.

وفي عام 1808 التحق الغجر بحاشية الملك البرتغالي جون السادس الذي انتقل إلى البرازيل إثر اجتياح الجيوش الفرنسية لبلاده.

وتتوزع في البرازيل مجموعتان كبيرتان من الغجر وهما: الغجر البرازيليون، والمجموعات الغجرية التي وصلت إلى البرازيل قادمة من البرتغال عام 1822، أما الغجر الذين وصلوا في القرن العشرين فهم غالباً من دول أوروبا الشرقية والبلقان. وثمة من وصل من الغجر إلى البرازيل من دول أمريكا الجنوبية.

ورغم اندماجهم مع البرازيليين على مستويات عدة، فإنهم حافظوا على تقاليدهم وطقوسهم بشكل صارم يفوق الوصف. وتنكر

العدد الأكبر منهم مع وصولهم إلى البرازيل بهيئة برتغاليين، لتسهيل اندماجهم ضمن شرائح المجتمع والعمل في مهن قد يصعب على الغجري الحصول عليها أو ممارستها.

وقدرت الإحصائيات الأولية أن عدد الغجر الذين يعيشون في البرازيل يقارب 100 ألف، غير أن العدد الحقيقي يتجاوز هذا الرقم بكثير. ويتقن غجر البرازيل ثلاث لغات: رومني (لغتهم الأصلية) والبرتغالية والإسبانية.

ورغم أن ثلاثة أرباع الغجر في البرازيل دون عمل متواصل، فإن الربع الباقي استطاع تسلق الوظائف الحكومية المهمة والمهن ذات الاختصاصات الفعالة كالطب والإعلام والمحاماة وكرة القدم، لكنهم غالباً ما يخفون أصولهم الغجرية.

البرازيليون بصورة عامة يخشون الغجر مستندين إلى الأساطير القديمة التي تصمهم بالسحر والشعوذة والسرقة، لذا ظلت المسافة بين الكثير من شرائح المجتمع البرازيلي ومجموعات الغجر، شاسعة، رغم دوران الأيام وتقادم الأعوام.. حيث ما زالت المدارس الرسمية التي تضم طلبة من الغجر، ترفض انضمامهم إلى النشاطات المدرسية، وتفرض عليهم لقاحات طبية.

ولا يخلو التاريخ الثقافي والفني للبرازيل من مساهمة الغجر، وتشير الدراسات التي أعدّت في الأعوام القليلة الماضية، إلى أن دور الغجر في مسيرة الثقافة والفن في عموم البرازيل ماثلة على أكثر من صعيد.

ظهر الغجر في أمريكا خلال الفترة الاستعمارية، حيث بدأوا

بالقدوم إلى الأرض الجديدة من إنكلترا وروسيا ودول البلقان منتصف القرن التاسع عشر، وانتقل العديد منهم إلى القرى البعيدة والأرياف بحثاً عن فرصة حياة جديدة، فيما فضّل بعضهم المدن الصناعية الكبيرة والسواحل الأمريكية في كلا الجهتين.

ويعتبر غجر إنكلترا المجموعة الأولى التي عبرت المحيط باتجاه أمريكا، رغم أن الغجر يخشون الماء ويفضلون اليابسة. وبدأت هجرتهم رسمياً عام 1850 واستقروا في المناطق الريفية. . في حين استقر غجر هنغاريا في المدن الكبيرة وعملوا كموسيقيين في نواديها الليلية ومطاعمها الفاخرة.

غجر رومانيا وصلوا إلى أمريكا في نهايات القرن التاسع عشر، لكنهم ظلوا أقل عدداً من بقية الجماعات الغجرية الأخرى، وتخصصوا كمدربين للحيوانات، خاصة الدببة والقردة. فيما جاب غجر ايرلندا العديد من المدن والقرى في الولايات الجنوبية منذ وصولهم كبائعين متجولين. وبلغت أعدادهم في بداية الأمر عشرة آلاف مهاجر، وسرعان ما تضاعف العدد خلال اعوام قليلة.

غجر ألمانيا قدموا أيضاً إلى أمريكا بشكل مبكر، حيث وصلوا عام 1880، واستطاعوا العمل في مهن عدة، شكلت لهم فيما بعد الأساس لثروة بعض عوائلهم، حيث بلوروا شريحة من العمال المهرة في ولاية بنسلفانيا.

غجر اسكتلندا والمعروفون بالجوالين، وصلوا إلى الولايات الشمالية من أمريكا، بالإضافة إلى كندا في نهايات القرن التاسع عشر، وعاشوا على شكل مجموعات صغيرة واصلت الترحال بين الولايات الأمريكية وكندا.

هجرة الغجر الثانية إلى أمريكا كانت قبل عام 1914 وتحديداً قبل اندلاع الحرب العالمية الأولى، إذ غادر الكثير من العوائل الغجرية الكبيرة أوروبا باتجاه أمريكا، حاملة معها ارثها وقيمها وعاداتها، اضافة إلى عرباتها الخشبية، هرباً من الحرب التي بدأت بوادرها الأولى بالوضوح والتجلي.

وفي سبعينات القرن الماضي، قدمت جماعات غجرية أخرى من اوروبا الشرقية، خاصة من يوغسلافيا وبلغاريا وبولندا ورومانيا وتشيكوسلوفاكيا، بحثاً عن مأوى جديد وآفاق اقتصادية رحبة، بعدما فرضت عليهم السلطات في تلك الدول الاندماج في المجتمع والبحث عن عمل دائم، وحدّت من تنقلهم.. ومنعت عليهم ممارسة بعض مهنهم التقليدية.

المهاجرون الجدد لم يندمجوا تماماً مع المجتمع الأمريكي لأسباب عدة أهمها الفارق الطبقي وعامل اللغة والتفاوت الحاد بين حياتهم السابقة والجديدة، ليعيشوا على هامش حركة الحياة وتفاصيليها.. فيما طرق الجيل الثاني والثالث منهم أبواب الحياة الأمريكية، واستطاع أن يعبّر عن هويته بصورة واضحة وممارسة طقوسه بحرية، ولكن بطرق عصرية تتلاءم مع منحى الحياة الأمريكية.

المهاجرون الأوائل امتهنوا العديد من الأعمال ولعل من أهمها تجارة الخيول وتطبيبها، وأسسوا الكثير من اسطبلات المتاجرة بالخيول في ولايات أمريكية عدة، غير أن هذه التجارة سرعان ما أصابها الكساد بعد الحرب العالمية الأولى إثر تطور صناعة السيارات واتساع أسواقها، واعتماد النقل التجاري على القطارات السريعة

المصنعة حديثاً آنذاك، ليتحول الكثير من العوائل الغجرية إلى صناعة وبيع الأثاث وقراءة الطالع وممارسة الأعمال الموسمية كخبازين وتقنيين في مصانع صغيرة.

الهجرة الأولى للغجر إلى أمريكا تقلصت كثيراً بعد الحرب العالمية الأولى، إثر التضييق على المهاجرين الجدد وسنّ قوانين مغايرة فيما يتعلق بنوعية المهاجرين ومهنهم وأصولهم.

الأزمة الاقتصادية التي تعرضت لها الولايات المتحدة الأمريكية في ثلاثينات القرن الماضي، لامست حياة الغجر بصورة واضحة، الأمر الذي أدى إلى تفرقهم إلى مجموعات صغيرة متنقلة للبحث عن مصير غامض في بلاد ما زالت مجهولة بالنسبة للكثير منهم.

الهولوكوست

أوشفيتز كان بيتنا
كبيراً.. ومعتماً،
حين وصلت إليه
ازرقّت شفتاي
وغرقت بقطرات خوفي.
أوشفيتز كان بيتنا
لكنه لا يطل على شارع
وليس له عنوان.

الشاعر الغجري
راجكو غورك

بلورت النازية نهجاً متميزاً في سياسة التطهير العرقي ضد الغجر منذ هيمنة الحزب النازي على السلطة في ألمانيا، باعتبارهم سلالة منحطة لا تستحق أن تحيا وتشارك بقية الأقوام البشرية الحياة.

تعود سياسة التمييز العنصري ضد الغجر في المانيا إلى العام 1714، حيث أعلن في أبرشية «مينز» أن جميع الغجر يجب أن يشنقوا دون أية محاكمة لأن طريقة عيشهم غير قانونية. وفي مقاطعة بروسيا تم تشريع الإعدام ضد الغجر عام 1725 ممن تتجاوز أعمارهم ثمانية عشر عاماً ودون محاكمة. وبعد عشر سنوات تم تخفيض العمر إلى أربعة عشر عاماً في عدد من الأقاليم الألمانية.

ويمثل أوتو فون بسمارك (1815 ـ 1898) السياسي الأول الذي شرع قوانين التفرقة بين الغجري الأصلي والغجري الاجنبي، ليغدو ذلك القانون فيما بعد أداة لطرد غير المرغوبين فيهم من الغجر، حتى أولئك الذين ولدوا في ألمانيا.

وفي عام 1886 شرع الأمير فريدرك ويليام قانوناً يحظر على الغجر ممارسة التجارة. وبعد ربع قرن من ذلك الزمان أباح ادولف فريدرك أمير مقاطعتي ميكليبرغ وستريلتز وشم الغجر وتعذيبهم ومن

ثم طردهم خارج البلاد دون أية تهمة.. وقد يقتلون فيما لو عادوا مجدداً إلى المقاطعتين، في حين كان الأطفال دون سن العاشرة ينتزعون من عوائلهم ليدعوا لدى أسر ألمانية. وبعد عام واحد اباح الأمير أوغسطس الأول رمي الغجر بالرصاص إذا قاوموا اعتقالهم.

ومنذ العام 1899 شرعت السلطات الأمنية في مقاطعة بافاريا العديد من القوانين الجائرة ضدهم. وتطورت تلك القوانين عام 1929 إلى الدرجة التي غدت فيها محكمة مدينة ميونيخ الكبرى هي المسؤولة عن ملاحقة الغجر، وقد سنّت تلك المحكمة قانوناً يقضي بعدم السماح بانتقال الغجر من منطقة إلى أخرى داخل ألمانيا الا بموافقة مسبقة من السلطات الأمنية، كما سنّت المحكمة ذاتها قانوناً يجبر شباب الغجر ممن تتجاوز أعمارهم السادسة عشرة على الانخراط بصورة مهينة في تنظيف المؤسسات الرسمية الكبرى.

ومع مطلع الثلاثينات من القرن الماضي حاصرت الأزمة الاقتصادية الحياة الألمانية. فسرحت العديد من الدوائر موظفيها، وتوقفت آلات المصانع عن الدوران في مدن عدة، ليهيمن الحزب النازي على السلطة.. وهي المهمة الأسهل لتجاوز الأزمة، ومثّل أدولف هتلر واجهة الحزب التي تسلقت السلطة.

ابتدأ النازيون حكمهم بجرد الغجر في عموم ألمانيا، مثلما فعلوا مع اليساريين الألمان واليهود والمعاقين، في قوائم خاصة وحصر أملاكهم، حيث جمعوا خلال أعوام قليلة أكثر من 30 ألف سيرة ذاتية غجرية حددوا فيها فصيلة الدم وألوان العيون وحجم الجماجم.. ووصفت عمليات التوثيق تلك بأنها من أكثر العمليات دقة وخطورة في آن.

ولم تكن السلطات النازية بحاجة إلى تشريعات جديدة بخصوص الغجر، رغم أن دستور جمهورية فايمر[1] نص على المساواة، حيث أرسلت السلطات الامنية أعداداً هائلة من الغجر الألمان إلى معسكرات العمل لمدة عامين على الأقل، مما جعل الأمر أكثر سهولة في تجريدهم فيما بعد من كل حقوقهم بشكل كامل.

واستبعد الألمان، الذين تعود أصولهم البعيدة إلى الغجر، من مواقع قيادية في الحزب النازي والوظائف الرسمية، لترتفع بعدها مباشرة موجة العداء والتمييز والكراهية ضد الغجر، إلى درجة لم تشهدها ألمانيا من قبل، وبدأت موجات التهجير القسرية للغجر خارج الحدود الألمانية.

وتحت تسمية «منحرفون اجتماعيون» تمّ إدراج الغجر في القوانين التي سنّت خصيصاً لاصحاب العاهات (أول ضحايا الإبادة الجماعية) في حزيران عام 1935. وصدرت في العام ذاته قوانين لإصلاح وحراسة المجرمين النظاميين والمنحرفين الاجتماعيين، ووفقاً لتلك الإجراءات تم تعقيمهم بشكل قسري بعقارات لم تكن معروفة آنذاك، كما صدر قانونان حظرا الزواج بين الألمان وبقية الأقوام من غير الأوروبيين، بمن فيهم الغجر.

اتسعت ظاهرة معاداة الغجر على نطاق كبير، إذ تمّ اعتبارهم

(1) الجمهورية التي نشأت في ألمانيا بعد الحرب العالمية الأولى، وتميّزت بدستور متطور وعادل، وحصلت على تأييد شعبي واسع، رغم أنها كانت تعاني من ضعف في الإدارة.

أجانب لا يحق لهم العيش والعمل في ألمانيا. . ودوّنت هذه العبارة نصاً كفقرة في قانون نيوبورغ الذي عدّل عام 1935.

الدكتور الألماني هانس غلوبك صرح عام 1936 أمام الرأي العام أن ثمة دماء غريبة تجري في عروق الغجر، شبيهه بدماء المخلوقات الفضائية! في حين أكد البروفيسور هانس اف أن الغجر من الأعراق البشرية المختلطة. بالمقابل حلل الدكتور ريتير عينة من دماء غجر، ليستنتج بالتالي أنه ليس بالإمكان مقارنة صفاء دماء العرق الآري مع دماء الغجر، وأن تلك الدماء غير الصافية تشكل خطراً حقيقياً على صفاء دماء الألمان.[2]

منع الجريمة كان بمثابة الذريعة الرئيسة لفرض الحظر أو الحجر على الغجر. . ولإبادتهم لاحقاً. كانت الشرطة الإلمانية قد جمعتهم في مجمع «زيغونر لانغ» منذ العام 1934، أي قبل أن يقوم النظام بتحديد من هو الغجري، ومن هو غير ذلك. وفي حزيران عام 1936 فوض رئيس جهاز الأمن في برلين، وعبر مذكرة مكتوبة (ليس قانوناً) أن يعتقل جميع الغجر في مقاطعة بروسيا، وسرعان ما تم اعتقال 600 غجري ألماني مع عرباتهم، ونقلوا تحت إمرة حرس الأمن إلى مستنقع نفايات بالقرب من مقبرة مدينة «مارزهان». . وكان هدف سلطات المدينة قد تحقق: تنظيف شوارع برلين قبل بدء الألعاب الأولمبية.[3]

ازدادت سياسة النازية ضد الغجر حدّة بشكل متواصل، خاصة

---

(2) سيرة الغجر، ايزابيل فونيسكا، ترجمة د. عابد إسماعيل، دار التكوين ـ دمشق، الطبعة الأولى ـ 2006، ص 332.

(3) مصدر سابق، ص 332.

مع محاولات إعادة تعريف هوياتهم العرقية والاجتماعية، ضمن قوانين تعسفية قبل اندلاع الحرب الكونية الثانية.

تدنّت حالة الغجر كثيراً، خاصة مع تصريح السلطات الألمانية بأن الغجر فئة منحطة أغلب أفرادها هم من المجرمين واللصوص والمشعوذين، لذا فهم يشكلون خطراً ماثلاً على النسيج الاجتماعي الالماني. . إلى درجة أنه تمّ الاقرار عام 1937 بعدم أهلية الغجر في الانتساب إلى المؤسسة العسكرية. وفي الفترة الزمنية الفاصلة بين العامين 1937 ـ 1938 اعتقلت السلطات الألمانية أعداداً هائلة من الغجر لتودعهم في معسكرات الموت، ومن أهمها: موتسن، غوسن، دوت مرغن، نادس ويلر، وفلوسنبرغ. . واتسعت تلك الاعتقالات لتصل إلى 300 غجري يومياً.

في كانون الأول (ديسمبر) عام 1938 أحصت الشرطة السرية عوائل الغجر ودوّنت أماكن إقامتها في ملفات سرية، وبعد أقل من عام ساقت الشرطة (30) ألف غجري من بيوتهم إلى أربع مدن بولندية وهي: بلزك، ماغدنك، تربلنكا، وسوبيور، في حين اقتيد آلاف آخرون إلى معسكرات في بلجيكا وهولندا وفرنسا، في محاولة لإفراغ ألمانيا منهم، وضمت قوافل الغجر المهجّرة الشيوخ والنساء، إلى جانب الأطفال.

أما داخل الأراضي الالمانية فقد أنشأت السلطات في قلعة هونسبرغ مطلع آذار (مارس) عام 1938 أول معسكر للاعتقال خاص بالغجر، وأكثر الذين أودعوا المعتقل، أولئك الذين قدموا من النمسا. . إذ تمّ حشرهم في غرف ضيقة، بعد أن ارتدوا ملابس المعتقل الخاصة بهم، وهي البدلة المخططة مع علامة مثلث صفراء

داكنة اللون تعتلي صدورهم، لتميزهم عن بقية المعتقلين، كذلك تم وشم معاصمهم بأرقام خاصة، ومن بقي منهم على قيد الحياة ظلت تلك الأرقام الموشومة مطبوعة في ذاكرته. بالمقابل أمرت السلطات ذاتها بمنحهم أقل كمية من الطعام كوسيلة لقتلهم ببطء وبدماء باردة.

وفي شتاء عام 1939 أُجبر الغجر على العمل في ظروف قاسية. الدفعة الأولى منهم والمكونة من ألفي معتقل، كانت قد فارقت الحياة بسبب الجوع والبرد، أما الذين بقوا على قيد الحياة، فتحولوا إلى حقل لتجارب الأدوية المصنعة حديثاً.. حتى تلك الخطيرة منها والمسببة للموت أو التشويه، إلى جانب الأسلحة الجرثومية والكيمائية المكتشفة آنذاك. ولم تسلم حتى أسنانهم الذهبية، فقد كان الجنود الألمان يساومونهم عليها مقابل الحصول على قطعة خبز أو استراحة قصيرة من العمل المضني.

أفاد ضابط مشرف على معسكرات اعتقال الغجر أن الغجري النزيه لن يستطيع العيش في الاعتقال ضمن الظروف الصعبة والقاهرة سوى ثلاثة أشهر، إلا إذا كان لصاً وبإمكانه سرقة بقايا الطعام أو حصص الآخرين.. وصرّح ضابط اخر مشرف على معسكر اعتقال خاص بالغجر في السويد، بأنه يفضل المعتقلين الغجر على غيرهم، لأنهم يجابهون القسوة والجوع بالغناء، وهم لم يأخذوا أياً من قراراتنا القاسية بجدية على الإطلاق، رغم كل الإرهاب المسلط عليهم.. إنهم يقاوموننا بالحيلة.

وإمعاناً في اضطهاد الغجر، أمر الرايخ الألماني الثالث في جلسة خاصة عقدت في 13 كانون الثاني (يناير) عام 1940، باعتقال 30 ألف غجري ونقلهم إلى معسكر «أوشفيتز» في بولندا، بعد

احتلالها، حيث ارتكبت القوات الألمانية الخاصة (SS) سلسلة متواصلة من الجرائم الفظيعة ضد الغجر في ذلك المعسكر. وكانت عمليات اعتقالهم ونقلهم تتم بإشراف خاص من هاينرش هملر، بعدما أسس في أيار (مايو) عام 1938 مكتباً خاصاً بالغجر، ورافق تأسيس ذلك المكتب إصدار العديد من القوانين العنصرية ضدهم، وأمر كذلك باستخدام الكلاب المدربة لغرض ملاحقتهم وإرسالهم إلى معسكر «اوشفيتز»، حيث قتل في ذلك المعسكر 21 ألف غجري. وكان موقعهم في المعسكر قرب أفران الغاز وعلى تماس يومي معها.

وتوازياً مع إجراءات المكتب الخاص بالغجر، تمّ إلقاء القبض على معظم الغجر في ألمانيا، بالمقابل تم طردهم من المؤسسة العسكرية الالمانية خلال الأعوام 1940 ـ 1942، كذلك تم فصل الطلبة الغجر من المدارس الألمانية ابتداءً من شهر أيار (مايو) 1941. وصرح هملر في ظل تلك الإجراءات بأن ليس للغجر أية حقوق للحصول على المواطنة الألمانية، كون دمائهم خالية تماماً من الدماء الآرية.

وحاول هملر، ومن نظرة شوفينية بحتة، تعقيم دماء الغجر، تحت ذريعة أن دماءهم غير نقية، ووقّع على قرار عام 1942 يقضي بإرسال الغجر إلى معسكر أوشفيتز، بغية الاستفادة منهم في التجارب المتعلقة بالجانب التقني العسكري، حتى أولئك المقترنين بألمانيات، كما حظر تداول مفردة «غجري» في القانون المدني وفي السجلات الرسمية.

وحدّد هملر أنواع دماء الغجر، حيث منح رمز (Z) للدماء

الغجرية الخالصة، في حين كان رمز (+ ZM) لدماء الغجري المختلطة مع إثنيات أخرى. أما دماء الغجري المختلطة بدماء جرمانية نقية فمنحها رمز (-ZM) . وقد أجبر نساء غجريات، بعد تعقيمهن، على الزواج من رجال غير غجر، بغية معرفة نتائج التجارب التي تجرى عليهن في مستشفى «دوسلدوف». وقد لاقت الكثير من النسوة حتفهن نتيجة تلك التجارب.

معسكرات «داتشو»، «مثوسان»، و«بيفنزس باك» وغيرها، كانت بمثابة الساحات المعلنة لقتل الغجر. وفي معسكر «ساشاسنهوسن» تم تجريب عملية تنقية دماء الغجر، وأشرف على تلك الاختبارات أطباء ألمان ضمن جهاز الحزب النازي.

عملية تصفية الغجر وترحيلهم جاءت بقرار مباشر من هملر، حيث أمر في 16 كانون الأول (ديسمبر) عام 1944 بإرسالهم إلى معسكرات اعتقال جديدة، مع وصايا جديدة تقضي بشحنهم إلى معسكر «سوج بركانيو»، إذ تمّ إيداع 20 ألف غجري من ألمانيا وبعض الدول الأوروبية التي احتلها الألمان.. وقد تم قتلهم فيما بعد في أفران الغاز الملحقة بالمعسكر بعد أشهر قليلة من وصولهم.

«ورنغ».. أحد الغجر الناجين، استعرض عملية اعتقال عدد كبير من الغجر في ربيع عام 1943 في مدينة «تربلاكا»، قائلاً: «في فترة اعتقالي كنت أعمل بجانب بوابة المعسكر، رأيت حشوداً من الغجر اعتقلت مؤخراً وقد سيقت إلى المعسكر، وهي الوجبة الثالثة منذ وصولي إلى المعسكر. كان عددها يقارب الألف، ربع العدد كان من الرجال، فيما كان الباقون من الأطفال والنساء، وقد تم اقتيادهم بعد أيام من وصولهم إلى أفران الغاز وحرقهم».

العديد من غجر بولندا لم يتمّ إرسالهم إلى معسكرات الاعتقال، بل تمّ إعدامهم رمياً بالرصاص في ضواحي المدن الكبيرة من قبل الشرطة السرية الألمانية، بعد تجميعهم. وبلغ عدد القتلى في حدود 3 آلاف غجري، وارتفع العدد ليبلغ 4 آلاف خلال أيام معدودة. وفي مدينتي «سانوك»، و«غازلو» قُتل ما يقارب الألف غجري رمياً بالرصاص.

كان الغجر بمثابة الضحية الأولى من المجموعات الإثنية لممارسات النازية، حيث تم وسمهم بالعديد من الألقاب والصفات العنصرية كالدماء الغريبة والعناصر المنحطة والموتى الأحياء.

واستفحلت تلك العنصرية مع طروحات النازية لدرجة أن أحد المفكرين الألمان المقربين من النازية، أشار إلى أن الغجر هم من العناصر الفائضة عن الحاجة، لذا من الضروري التخلص منها. وبدأت حينذاك موجة عارمة لقتل الغجر، اذ كانت تحضر لهم قبور جماعية ليدفنوا فيها بعد قتلهم بالجملة، وان بعضهم دفنوا أحياء. وقد وصلت حالة الكره العنصري لدى بعض الأطباء الألمان إلى منع اقتراب الغجر من الأنهار كي لا تتلوث مياهها، خاصة إثر اعتبارهم من الأخطار التي تهدد الأديان ونقاء القوميات، إذ سنت الدولة قانوناً يقضي بتقديم كل من يؤوي غجرياً، إلى محكمة بتهمة التستر على المجرمين. ومن الأسباب التي روجها النازيون ضد الغجر خلال اعتقالهم وقتلهم بأنهم يشكلون تهديداً للصحة العامة في عموم الأراضي الألمانية.

وتبلورت فكرة التخلص من الغجر بقتلهم في ربيع عام 1941، حيث احتجزت السلطات النازية الآلاف منهم في معسكري

«انساتغوربن» و«لودتبن» الذي أنشأه الألمان في أرض قاحلة وعارية تماماً، في محاولة للتخلص منهم ضمن عقاب جماعي.

ومنذ عام 1934 وضعت السلطات النازية الغجر الألمان في معسكرات خاصة، إلا أنها أعادت جمعهم ثانية وإرسالهم إلى معسكر «لوذ» في بولندا الذي غدا فيما بعد المعسكر ـ المختبر للغجر، حيث أجرى النازيون العديد من التجارب على السجناء تحت إشراف مجموعة من الأطباء.

امتدت سياسة النازية ضد الغجر إلى العواصم والمدن التي احتلوها، حيث كان الغجر أول ضحايا تلك المعارك. وأثناء الغزو الألماني لأراضي الاتحاد السوفياتي السابق في 22 حزيران (يونيو) عام 1941، أسرت القوات الألمانية آلاف الغجر وشحنتهم إلى معسكرات الموت، ومع انسحاب الألمان من الأراضي المحتلة تم الكشف عن العديد من المقابر الجماعية الخاصة بالغجر الذين تم دفن العديد منهم وهم أحياء. وقد كشفت تقارير أجهزة (SS) العاملة في الأراضي السوفياتية التي احتلتها القوات الألمانية عن قتل آلاف الغجر. وكانت عمليات القتل الجماعية تبرر تحت ذريعة أن الغجر جواسيس ومن الضروري التخلص منهم. وقد وصل عدد الغجر الذين تمّ قتلهم إلى 250 ألفاً تقريباً.

في يوغسلافيا تصاعدت موجات قتل الغجر ابتداءً من تشرين الأول (أكتوبر) عام 1941، ومثلت غابة «تشاتشنيس» المسرح لتلك العمليات. ولا يزال الصيادون يتذكرون بكاء أطفال الغجر وتوسلاتهم وهم يساقون نحو الموت في شاحنات عسكرية مكشوفة.

وكشفت منظمة الدفاع عن الحقوق المدنية في يوغسلافيا السابقة

أن القوات الألمانية قتلت ما يقارب 28 ألف غجري في صربيا وحدها. بالمقابل يصعب حقاً تحديد أرقام ضحايا الغجر في بولندا، غير أن مؤرخاً يدعى «جوزيف بوم» قدر عددهم بنحو نصف مليون غجري خلال الأعوام الممتدة من احتلال بولندا ولغاية تحريرها.

في تشيكيا لم يكن الأمر مختلفاً، حيث واجه الغجر حرب إبادة عرقية في غاية الشراسة. وقد تم اكتشاف دلائل موثقة تشير إلى أن الآلاف منهم قد ذبحوا خلال الاحتلال النازي. وأكدت تلك السجلات بأن ثمة 8 آلاف غجري قد تمّت تصفيتهم في معسكرات الاعتقال، كما أن هناك ما يقارب 4 آلاف غجري أُرسلوا من معسكر «ليتي» إلى معسكر «أوشفيتز» سيّئ الصيت في بولندا لغرض قتلهم.

وتتراوح التقديرات حول عدد القتلى من غجر هنغاريا بحدود 10 الاف، وثمة أعداد أخرى من الضحايا ما زالت مجهولة. أما في بولندا فقد قُتل ما نسبته خُمس العدد الإجمالي للغجر.

وترجمت السجلات بشاعة الجرائم التي اقترفت ضدهم، إذ كانوا يقتلون النساء والأطفال بقطع رؤوسهم باستخدام فأس كبيرة ودفنهم في الغابات المحيطة بالمعسكر.

وغالباً ما يزج الذين تعرضوا لتجارب متعلقة بالأسلحة الكيميائية أو استخدام الأدوية المصنعة حديثاً، والذين عادة ما يصابون بأمراض معدية، فكان يزج بهم وسط الأصحاء المحتجزين لغرض قتل أكبر عدد منهم من خلال تفشي الأمراض بينهم.

الدكتور «فوغل» طبيب سجين وأحد الناجين من معسكر «لودذ» أفصح بعد تحريره أنه أُجبر على توقيع شهادات وفاة تحت ذرائع أزمات قلبية لعدد من الغجر الذين شنقوا أو ماتوا خنقاً.

Konzept.

PROTEKTORATSKRIMINALPOLIZEI
KRIMINALDIREKTION BRÜNN

Tgb.Nr. 123.834/Krim.42. Den 8.Dezember 1942.

An die

Protektoratskriminalpolizei
Kriminaldirektion

in Prag.

Betrifft: Transport der Zigeuner-Vorbeugungshäftlinge ins Anhaltelager in Auschwitz.

Anlagen: 3.

In der Anlage werden die Verzeichnisse der Zigeuner, welche am 7.Dezember 1942 ins Anhaltelager in Auschwitz bei Kattowitz eingeliefert wurden, vorgelegt.

Die Vorbeugungshäftlinge wurden in Mährisch-Ostrau am 7.XII.1942 um 13.30 Uhr der Deutschen Gendarmerie übergeben.

I.

II

Nach Austragung zurück dem Referenten

8.12.42.

نسخة عن وثيقة سرية صادرة في 8 كانون الأول (ديسمبر) 1942 موقعة باسم مدير شرطة مدينة برنو التشيكية خلال الاحتلال النازي، تطالب بضرورة ترحيل المعتقلين الغجر إلى معسكر أوشفيتز بغرض قتلهم في أفران الغاز.

ويتذكر «كالمان ووكويتش» السجين والذي عمل في أحد المشافي، أن الغجر لم يكونوا يعالجون هناك ولا في أي مكان آخر. يتذكر تلك اللحظة حين توقفت فجأة الموسيقى التي كانت تأتي من معسكر الغجر، إثر الأوامر التي نصّت على منع الموسيقى. ساد الصمت الذي أفسده لاحقاً زعيق الشرطة السرية وصراخ الضحايا الذين عُذبوا بقسوة.

«ابرام روزنبروغ» الذي عمل في المعسكر كحفار قبور، كان ينقل الموتى الغجر ويدفنهم في مقابر جماعية، ينقل مشاهداته عن تلك المأساة: «كان هناك ثلاث إلى أربع شحنات يومياً، وفي كل شحنة كان يوجد ثماني إلى عشر جثث، من بينهم أطفال ورجال مسنّون.. معظم الجثث كانت مشوهة، وبعضها مصاب بكدمات في الرقبة، تدل على أنهم ماتوا شنقاً، مع دلائل على أذرع مكسورة وأقدام مهشّمة. ربما قد حاولوا المقاومة أو الفرار قبل قتلهم.[4]

وفي 13 تشرين الأول (أكتوبر) 1940 أرسل مارتن بورمان، وهو أحد مسؤولي معسكرات الاعتقال، رسالة إلى هملر أكد فيها أنه ماض في النهج الرسمي للتخلص من الغجر، وأن أية معاملة حسنة لهم تعني انحرافاً عن المعايير المتبعة في القضاء عليهم، مشيراً إلى أن أعضاء الحزب النازي لن يستوعبوا أبعاد أية معاملة رؤوفة لهم، والأهم أن الفوهرر لن يوافق على منح أية مجموعة منهم حريتها. وتروي مراسلات تشيكية أن السلطات النازية قد أجرت تجارب عدة في كانون الثاني (يناير) عام 1941 على (250) طفلاً من الغجر في

---

(4) مصدر سابق، ص 340، 341.

معسكر «برنو» في تشيكيا لتحديد فاعلية غاز «زيلكون» وهو أحد أخطر الغازات القاتلة.

وفي فرنسا بلورت سنوات الحرب الكونية الثانية أكثر الحقب ألماً في تاريخ الغجر، خاصة بعد تخصيص 11 معتقلاً خاصاً بهم، يدعى أحدها ـ وهو الأوسع ـ «غيرس»، الذي كان بالأساس مصحاً توقف العمل فيه عام 1840، وتميز بأنه خال تماماً من الأبواب والنوافذ، حيث كان الغجر ينشرون ملابسهم لإغلاق تلك الفتحات. ولأجل الحصول على صحن صغير من الحساء، تعيّن على الغجري قطف الفواكه من الأشجار ما يعادل شاحنة صغيرة.. في حين كان الأطفال يتشاجرون فيما بينهم للبحث عما يسد رمقهم بين مخلفات الجنود الألمان. وسمحت سلطات المعتقل لشباب الغجر بترك المبنى عشرة أيام في الشهر، مع ضمان عدم هروبهم، وذلك للعمل في مراكز المدن القريبة، مقابل حصول مسؤولي المعتقل على الحصة الأكبر من عائداتهم.

غجر بلغاريا والدنمارك وفنلندا واليونان، نالوا أيضاً قسطاً كبيراً من المعاناة والألم خلال الاحتلال النازي لتلك الدول، خاصة مع شيوع النظرة السائدة عنهم. وقد استخدمتهم سلطات الاحتلال كأيد عاملة مجانية في مشاريعها العسكرية، مقابل الحصول على وجبة غذائية واحدة يومياً.

وخلال سنوات الحرب جالت فرق نازية عسكرية أو شبه عسكرية، العديد من الدول التي وقعت تحت براثن الاحتلال الألماني، للبحث عن الغجر وتصفيتهم بذريعة تخليص البشرية من العناصر الفاسدة.

وفي تموز (يوليو) عام 1942 زار هملر أحد معسكرات الاحتجاز الخاصة بالغجر في ألمانيا، ورأى الكثير منهم وقد أصابهم المرض وبدا الإعياء واضحاً عليهم. . وهم أقرب إلى الموتى من الأحياء، فأمر بقتلهم جميعاً لتخليصهم من العذاب! وبعد عامين اقتادت السلطات الألمانية 4 آلاف غجري إلى محارق الغاز دون أدنى معرفة منهم بما سيحل بمصيرهم، وحين وصلوا إلى تلك الأفران تم دفعهم مباشرة وبالقوة داخلها.

تعرّض الغجر لحالات خداع فظيعة. كانوا يعدونهم بطعام جيد وتوفير فرص عمل، لكن عليهم الاستحمام أولاً. إنه شهر كانون الأول (ديسمبر) شديد البرودة، كانوا يخلعون ثيابهم في غرفة مدفأة ويمرون عبر باب دوّن عليه «الى الحمام». كان يقال لهم إن مقطورة صغيرة ستأخذهم إلى الحمامات، غير أن الرحلة في الواقع كانت تنتهي بهم إلى أفران الغاز، حيث لم تكن تلك المقطورات سوى وحدات إعدام بالغاز تحمل الموتى، بعد ذلك، إلى الغابات ليطمروا هناك في قبور جماعية، قبل العودة لنقل شحنة أخرى من المستحمين.(5)

ومفردة «هولوكوست» إغريقية الأصل وتعني «الحرق تضحية من أجل الله» وهي من المصطلحات التي اختيرت بعناية من قبل النازيين لمنح فعلهم الإجرامي مسحة دينية مقدسة.

«شوارتسهبر». . ضابط في معتقل خاص بالغجر، أشار في اعترافاته بعد نهاية الحرب إلى أن الغجر كانوا يرفضون الانصياع إلى

(5) مصدر سابق، ص 343.

الأوامر القاضية بحرقهم، وكانوا يقاومون بشتى الطرق للخلاص من الموت. . ولكن دون جدوى. ولعل الملاحظة التي أوردها الضابط النازي في اعترافاته، أن الغجر خلال احتجازهم جربوا الزراعة في الأراضي المجاورة لردهاتهم. وأكد الضابط أن الجنود الألمان كانوا يدفعون الغجر إلى أفران الغاز وهم يرددون: ستخلو الأرض من المجرمين. . وستقل نسبة الجريمة فيها.

وفي الفترة الزمنية نفسها تمّ إلغاء قسم خاص بالعوائل الغجرية في معسكر «أوفشيتز» حيث لم تعد لظاهرة تجميع العوائل أية فائدة تذكر للنازيين، خاصة بعد شحن العديد من شباب الغجر إلى المصانع الألمانية، باعتبارهم أيدي عاملة مجانية، أما العجزة وكبار السن والمرضى والأطفال، فقد تم حرقهم في أفران الغاز. ولم يعرف حتى الآن العدد الحقيقي لضحايا الغجر في أوروبا، غير أن التقديرات الأولية تشير إلى 250 ألف قتيل، بينما تؤكد تقديرات أخرى أن عدد الضحايا قد تجاوز مليوناً ونصف المليون.

613 غجرياً ماتوا داخل غيتو «لودذ»، أما البقية ممن أُرسلوا إلى «تشيلمنو». . معسكر الإبادة التجريبي فقد قتل منهم فيه 350 ألف شخص. ويتذكر جان ديرنوفسكي عمليات نقل الغجر تلك:

«قافلة يومية تتألف من عشر شاحنات كبيرة تحمل لوحات الأمن السري، كانت مغطاة ومحروسة من الجانبين من قبل عناصر الغستابو المسلحين داخل سياراتهم. كنتُ أنظر برعب إلى تلك القافلة لأنني أعلم جيداً هدف تلك الرحلات، كنتُ أسمع نحيب وأنين المرحّلين».

يتذكر مايكل بودلبنيك وهو أحد السجناء الذين استطاعوا الفرار من «تشيلمنو»، وصول شحنات المرحلين إلى معسكر «لوذ». . «أتى الغجر أولاً، حوالي خمسة آلاف، ومن ثم الأقليات الأخرى. كان الدافع المباشر لنقل الغجر إلى «تشيلمنو» انتشار مرض التيفوئيد في ردهاتهم المكتظة داخل الغيتو. كان هؤلاء أول من دُفع بهم إلى غرف الغاز، اذ كان ثمة حاجة إلى بيوت هؤلاء، حيث فرغت من سكانها لايواء المرحّلين الجدد». (6)

ورغم خطط الغجر بالهروب من دوريات التفتيش الألمانية والوحدات الخاصة، فإن خطط الألمان كانت تقضي بمداهمة أماكن تجمّعهم وشحنهم إلى المعسكرات الموزعة في الأراضي الألمانية، ليتم بعدها إرسالهم إلى معسكرات الموت الموزعة في الدول المتاخمة لألمانيا والتي احتلتها في أولى سنوات الحرب.

«دونا تشك» باحثة في تاريخ الغجر، دوّنت محاولات فرار الغجر وتاريخها وأساليبها، إلى جانب أسماء الغجر الذين وقعوا في قبضة الحراس إثر فشل محاولات هروبهم، وأولئك الذين تمكنوا من الفرار. وتشير «تشك» إلى أن معاناة الغجر كانت كبيرة، إلى درجة أنها حُفرت عميقاً في تاريخ البشرية، ولكن من دون ان يسلط الضوء عليها ليعرف الجميع المعنى الحقيقي لتلك المعاناة، والتي ما زالت متواصلة بإلغائها أو تجاهلها.

استخدم الغجر مفردة «الافتراس» للدلالة على المحرقة، ولم تكن مفردة «هولوكوست» متداولة فيما بينهم، خاصة بعدما غيّبهم

(6) مصدر سابق، ص 342.

تاريخ المحرقة، إذ صنع الغجر عبر العقود اللاحقة للمحرقة قدراً كبيراً من النسيان، فيما شحذ الضحايا اليهود ذاكرة البشرية بأكملها وصنعوا قدراً للتذكر. ولعل السبب يعود إلى غريزة نسيان أو تناسي الماضي التي تطغى على حياة الغجر. . وثمة فئة قليلة للغاية منهم تعلم مدى القمع والموت اللذين غلفا حياة أبناء جلدتهم خلال تلك الأعوام.

أحد جنود الحلفاء الذين دخلوا معسكرات احتجاز الغجر بعد نهاية الحرب، أكد أنه فزع من الرائحة العفنة المنبعثة من غرف الاعتقال ومن المعتقلين الذين ما زالوا على قيد الحياة. وأضاف أنه شاهد أفران الغاز الخاصة بحرق الغجر وعثر على بقايا الجثث المحترقة.

بعد ان طوت الحرب فصولها المأساوية تقدم عشرات الآلاف من الغجر الذين ظلوا على قيد الحياة، بطلبات تعويض إلى المحاكم الألمانية، باعتبارهم ضحايا النازية، مثلما فعل اليهود، غير أن المحاكم رفضت تلك الطلبات تحت ذريعة أنها جاءت متأخرة زمنياً.

بالمقابل مارست السلطات الألمانية بعد الحرب العديد من أساليب القمع والإرهاب ضد الغجر.

والغريب في الأمر أنه لم يتم تناول عمليات قتل الغجر في محاكم نورمبرغ التي أُقيمت بعد الحرب وسقوط النازية، كما لم يستدع أي من الشهود الغجر، ولم يتم الاعتراف بالمجازر المرتكبة ضد غجر ألمانيا تحديداً إلا في عام 1982، كذلك حسمت مرتبات الضمان الاجتماعي من تعويضات المحرقة، وأقرت المحاكم بعدم شرعية مطالبة أبناء الضحايا بالتعويضات.

«فرانز وايربل». . صبي طرده الألمان من مقاعد الدراسة كونه غجرياً، وفي عام 1938 أُلقي القبض عليه مع عائلته في مدينة بروسيان، حيث يقيم، وفي مطلع عام 1941 اقتيد إلى بولندا، حيث احتُجز في معسكر «أوشفيتز» وفُصل عن والدته في الثاني من أيار (مايو) عام 1944 في تمام الساعة الرابعة عصراً، لتحرق بعد ساعتين في أفران الغاز المعدّة سلفاً لهذا الأمر. وبهذا خسر عائلته بأكملها وأولاد عمومته وعماته وأخواله، وبلغ عدد الذين قتل منهم 39 فرداً. في حين تركه الألمان على قيد الحياة ليؤدي بعض الأعمال الخدمية كونه يافعاً وقادراً على العمل.

وبعد نهاية الحرب، أُطلق سراحه ليعيش بقية حياته محكوماً بكابوس الموت الذي خطف أفراد عائلته. . والذي كان على تماس مباشر معه مرات عدة.

حاول وايربل في عقد الستينات التقدم بطلب التعويض باعتباره أحد الناجين من الهولوكوست، غير أن السلطات الألمانية رفضت طلبه بذريعة التأخير في التقديم. ويعيش وايربل اليوم في ألمانيا، حيث يعمل برفقة زوجته في إصلاح الآلات الموسيقية. ويشير إلى أن طلبه قد رُفض لأنه غجري وباعتباره مواطناً من الدرجة الثانية. ورغم كل المحاولات للحصول على التعويض، فقد فشل تماماً، الأمر الذي دعاه إلى إعلان الإضراب عن الطعام بالقرب من مقر حكومة مقاطعة بافاريا، وذلك لشحذ أنظار المسؤولين الألمان باتجاه معاناة العدد الهائل من الغجر الذين عانوا من ويلات المحرقة والاحتجاز والتهجير والتعذيب. . ولغاية التصفية الجماعية.

لا يزال وايربل يتذكر جيداً كل قاعة في معسكر «أوشفيتز» وما

زالت ذاكرته طرية لكل ما تعرّض له.. حتى أنه يتذكر رقمه الخاص في المعسكر (29805)، وصور الموت والعذاب المتواصل فيه وفقدان الأحبة ما زالت محفورة في ذاكرته، ولغاية الآن.. وكأن الاحداث قد جرت يوم أمس.

في سن الخامسة عشرة فقد كارولي ليندفاي كل من يمتّ إليه بصلة، فمن بلدته جينغاي، جنوب غربي بودابست، ألقت الشرطة الهنغارية القبض عليه مع عائلته، وأُجبروا على السير لمسافة 40 ميلاً باتجاه معسكر «شيلاغ» الذي كانت تديره منظمة «ارو كروس» الفاشية. وبعد 50 عاماً كانت ذاكرة ليندفاي لا تزال غضة.. «كنا نتابع سيرنا باتجاه الأمام، انضم آخرون إلى مجموعتنا، مزيد من الغجر.. ومزيد من الشرطة، بعض الأطفال قضى نحبه على الطريق، والبعض ممن حاول الفرار قُتل رمياً بالرصاص وتُرك على قارعة الطريق. وصلنا إلى المعسكر بعد أسبوعين، لم يكن لدينا طعام. الكثير ماتوا بسبب انتشار التيفوئيد، وغيرهم قُتل. كان الموتى يُرمون في حفرة كبيرة ويغطون بالأتربة. أكداس فوق أكداس من الموتى. لم أعلم متى امتلأت الحفرة أخيراً بعد أن نُقلنا في شاحنات لنقل الماشية وتوجهوا بنا إلى جهة مجهولة».

نجا ليندفاي إثر غارة جوية.. ففي فوضى صفارات الإنذار والبواق هرب إلى الغابات واختفى لمدة عام أو اكثر.. ولم ير الآخرين.

لم يكن ليندفاي قد سمع بمفردة «هولوكوست». وفي سن الخامسة والستين لم يكن قادراً على التصديق بأن كل ما حدث هو ببساطة لأن الغجر غجر، لكنه كان يعلم تماماً أن عائلته قد أُبيدت

بالكامل بعدما تم نقل سجناء معسكر «شيلاغ» إلى «أوشفيتز».[7]

المؤتمر العالمي للغجر بدأ في العقود الأخيرة باستذكار ضحايا معسكرات الموت وأفران الغاز من الغجر، متخذاً من بعض المعسكرات مكاناً لإقامة تلك الطقوس. إحدى المشاركات دوّنت مشاعرها: «مع أولى خطواتي في المعسكر شعرت بالرهبة والخوف.. إنه المكان الأكثر قسوة الذي شاهدته في حياتي، تراءى لي الغجر وهم مرضى وجوعى وعراة يحاصرهم الموت، يساقون إلى أفران الغاز. تراءت لي بقايا الجثث في أقبية المعسكر، شعرت بأن آلاف العيون تراقبني وتناشدني، لم أستطع إيقاف سيل الدموع الذي ملأ وجهي. عيون الغجر قالت لي في صمتها: لا تسمحوا بتكرار تلك الفظائع، لأنكم ستكونون الضحايا».[8]

(7) مصدر سابق، ص 328.

(8) UNESCO News letter. oct. 1984. p 24.

فنون الغجر

لم أعرف أبي أبداً
وليس لي أصدقاء،
ماتت أمي منذ زمن
وتركتني حبيبتي غاضبة،
أنت وحدك يا كماني
ترافقني في هذا العالم.

شعر غجري

لا يمكن تصور غجري دون آلة موسيقية. فالموسيقى بالنسبة للغجر هي بمثابة الصرخة المدوية على امتداد الدهور التي لامسوا خلالها أقسى أنواع العذابات.. والمعبّرة أيضاً عن شهوة الحياة التي طالما حلموا بها. وهي بذلك الهوية البديلة عن هويتهم الضائعة، إذ تحفل موسيقاهم بطاقة تعبيرية دون مدى وتنصهر في نغماتها أقصى حالات الألم والعشق في آن.

وعرف عن الغجر ارتباطهم بالموسيقى عزفاً وغناء ورقصاً، وكانت مواهبهم سبباً رئيساً في حصولهم على قدر من الصفح والتسامح.

وليس للغجر لغة موسيقية مشتركة، فهم حفظوا الأغاني والموسيقى المحلية للشعوب التي شاركوها الحياة، وأضافوا إليها نكهتهم الخاصة، ونالوا بذلك الاعتراف ليغدوا جزءاً من الهوية الوطنية لموسيقى تلك الشعوب. ومنذ منتصف القرن الثامن عشر أصبحت هيمنتهم واضحة على الموسيقى ولم يعد بالإمكان الاستغناء عنهم، حتى غدت الموسيقى من أرقى المهن التي يمارسها الغجري، كذلك أهمها كمصدر للرزق.

ولعل السؤال الذي يبلور ذاته بين طيات البحوث عن أصول الغجر هو: هل ثمة موسيقى غجرية بالفعل؟

يُعتقد أن الموسيقى الغجرية كالديانة الغجرية تماماً، تتأثر إلى حد كبير بثقافة ومعتقدات الشعوب التي يعيشون بينها. ولعل أول إطلالة غجرية على العالم خارج الهند كانت من قبل الموسيقيين الذين أرسلهم الملك شانكال إلى الملك بهرام غور. ومنذ ذلك الزمن حصد الغجر شهرة واسعة، وكانوا من أشهر عازفي آلة السيتار، حيث أحيوا الحفلات الموسيقية التي كانت تقام في قصور كبار الإقطاعيين منذ مطلع القرن السابع عشر، كذلك في حفلات الرقص التي تحتفي بها القرى في مواسم الحصاد. واستدعت العديد من الدول الفرق الموسيقية الغجرية للسير أمام الجيوش المتجهة نحو جبهات القتال. وتم استخدام موسيقاهم في مراكز التطوع، حيث تلهب تلك الموسيقى روح الحماس والاستعداد للمشاركة في المعارك، خاصة خلال حروب الدولة العثمانية في البلقان مطلع القرن التاسع الميلادي.

وتدل الوثائق على أنه كان للموسيقيين الغجر شهرة واسعة، حيث كانت للملكة بياتريس في نهاية القرن الخامس عشر فرق موسيقية غجرية، بالمقابل كانت العديد من العوائل الغجرية تمارس عملها كفرق فنية جوالة في دول أوروبية عدة.

ولم يعرف الغجر تدوين النوتة الموسيقية، لذا اندثر معظم التراث الموسيقي الغجري، كما أن للارتجال مساحة مهمة في موسيقاهم. وتتباين موسيقى الغجر بين الحزين ولغاية الفرح المرتبط بالرقص أساساً، وغالبا ما يؤدي الغجر الغناء بمصاحبة الموسيقى

والرقص وبحماس يفوق الوصف.

ويستخدم الغجر الموسيقى عادة في ممارسة الطب السحري، حيث تلصق عائلة المريض ورقة نقدية على جبين العازف تعبيراً عن امتنانها. وتطورت تلك الظاهرة لتغدو كتميمة في عدد من شعوب آسيا، لكنها حادت عن خصوصيتها لدى العرب في العقود الأخيرة لتصبح رمزاً للمفاخرة والمفاضلة بين المشاركين في الحفلات العامة والخاصة على حد سواء.

ويعتبر القرن الثامن عشر العصر الذهبي للموسيقى الغجرية، مع انصهار الموسيقى الفلكلورية الهنغارية مع الموسيقى الغجرية. وقد أسست عوائل غجرية عدة فرقها الموسيقية الخاصة بها، وطافت بها القرى والمدن البعيدة. ورغم أن الفرق الغجرية كانت تعزف المقطوعات المحلية الرائجة آنذاك، فإن ملامح موسيقاهم كانت شرقية.

ومع توالي الأعوام بدأ الموسيقيون الغجر بتأليف موسيقاهم الخاصة، ومن أهم مؤلفي تلك الفترة الفنان «يانوس بهاري» الذي ألّف مقطوعة «بهاري نوتة» عام 1808 واستخدمت في احتفالية خاصة بالامبراطورة ماريا لويزا، كما ألّف مقطوعة بعنوان «ريكورد مارش» التي استُخدمت تالياً نشيداً وطنياً لهنغاريا.

ويعتبر «بروسبا مارامي» أول مؤرخ معاصر في تاريخ الموسيقى الغجرية في هنغاريا، وقد أشار في كتاباته إلى أن الفرق الغجرية التي وصلت إلى المناطق البعيدة كانت تتخذ من ساحة القرية الرئيسة مسرحاً لعروضها الموسيقية، وأن تلك الحفلات غالباً ما تنتهي بشجارات صاخبة، لتقرر بعدها الفرقة الرحيل إلى قرية اخرى.

الموسيقار «فرانز ليست» كتب دراسة تحت عنوان: «الغجر وموسيقاهم في هنغاريا» عام 1881 اعتبر فيها أن ذلك اللقاء الذي تم مصادفة بين الشعبين الغجري والمجري قد أنتج هذه الموسيقى العظيمة. وصاغ «ليست» رابسودياته من وحي ذلك اللقاء، كذلك رقصات برامز الشهيرة، لكن علماء موسيقيين هنغار مثل فيكي وجير جيلي وعالم الغجريات جول بلوش أكدوا أن ليس ثمة موسيقى غجرية حقيقية في هنغاريا، فلدى الفلاحين الهنغار موسيقاهم الفولكلورية الموجودة قبل وصول الغجر بفترة طويلة، لكن الواقع أن الغجر مزجوا موسيقاهم وأغانيهم بالموسيقى الهنغارية.

وكانت أشهر فرقهم الموسيقية وأشهر عازفيهم من شمال غرب أوروبا (سلوفاكيا الغربية الآن) وكانت أقرب أقاليم المجر إلى فيينا قلب الحياة الموسيقية في أوروبا آنذاك. وفي منتصف القرن التاسع عشر غدت موسيقى الغجر من طراز عال، واشتهرت في روسيا من خلال الرومانسيات، وأحيا العازفون الغجر حفلاتهم في الحانات والخانات الواصلة بين الطرقات، وفي الأسواق والمهرجانات الشعبية وحفلات الزفاف. وتتوزع أكثر الفرق الموسيقية الغجرية حاضراً في ألمانيا وهولندا وسويسرا وفرنسا وإسبانيا.

ورغم براعة الموسيقي الغجري على العزف على آلة اللوت، فإنها لم تكن الآلة الوحيدة لديه، بل تعدت إلى آلات أخرى كالكمان والدفوف والطبول. ويكنّ الغجري الاحترام العميق لآلة الكمان، فمهما كانت مهنة الغجري فهو يجيد العزف على الكمان بصورة أو بأخرى.. ولم تغفل الأساطير الغجرية عن ارتباط الكمان بأصول الغجر منذ نشوء الخليقة الأول.

واستخدم الغجر بشكل عام في موسيقاهم آلات النفخ الهوائية كالناي والمجوز والمطبك والمزمار والكلارنيت. أما الآلات الوترية لديهم فهي الكمان والبزق والربابة والغيتار.. والعود أحياناً. آلات الإيقاع هي أيضاً كثيرة وتتوزع على الطبلة بأنواعها والرق والدفوف. ومثلت آلة الأكورديون ركناً أساسياً في موسيقاهم في وسط وجنوب أوروبا.

واستعار الغجر من بلغاريا آلة موسيقية تدعى كوبزا وهي شبيهة بآلة العود، كذلك آلة أخرى تشبه الناي، كما ساهموا بتطعيم موسيقى الزفاف البلغارية. واستخدموا في رومانيا آلة تشبه البيانو المتنقل وتعود أصولها إلى آسيا. وخلال القرون الأخيرة من متاجرة رومانيا بالغجر كعبيد، تم استبعاد الموسيقيين الغجر، ومنحوا الكثير من الامتيازات التي لم يحصل عليها حتى الفلاح الروماني. ولمهارة العازفين الغجر تم توظيفهم في الفرق الموسيقية الكلاسيكية، وإشراكهم في الحفلات الموسيقية داخل رومانيا وخارجها.

أساس الموسيقى والأغاني الغجرية في رومانيا يستند إلى أحزان الغجر ورثاء تاريخهم واستعراض معاناتهم، كما أنها تحرض الأحلام على الاستيقاظ في الذات الغجرية المهمومة.. أحلام تمس قلب كل غجري. وغالباً ما تتألف الفرق الموسيقية الغجرية من خمسة إلى عشرة عازفين، وتحيي تلك الفرق المناسبات في القرى الرومانية، كما تحيي الحفلات في السرادق الصيفية في الهواء الطلق. وفي الأعوام الأخيرة بدأت الكثير من الفرق تقدم وصلاتها الموسيقية والغنائية في المطاعم والفنادق الفخمة في عدد من العواصم والمدن الكبيرة في أوروبا.

أغاني الغجر في رومانيا غالباً ما تتوشج بطقوس خاصة، ومنها ملحمية أو شعبية، وأخرى خاصة بالأطفال، كذلك أعياد الميلاد وبعض المناسبات الخاصة. وثمة نوعان من الأغاني التي تؤديها الفرق الغجرية: الأول هو القديم الذي يتمحور حول الملاحم الشعبية التي تستعرض سِيَر الأبطال المحليين وسماتهم.. وهي أغان تسمح للمؤدي بالارتجال وإضافة أبيات أخرى موازية للحدث والمعنى، إضافة إلى الوزن. أما الثاني فهو الحديث المطعّم بموسيقى الجاز وغيرها من أنواع الموسيقى الغربية المعاصرة.

في ألبانيا سيطر الغجر على الموسيقى الشعبية المسماة «تالافا» ومن خلالها اكتسب الفنانون الغجر شعبية واسعة، وساهموا بإحياء الحفلات في المدن والقرى الألبانية دون منافس.

وبلور الغجر في روسيا تياراً موسيقياً مهماً منذ عهد الامبراطورة كاثرين، غير أنه بقي ضيقاً وهامشياً ومحاصراً في دائرة الجماعات الغجرية. وبعد ثورة عام 1917 منح البلاشفة الغجر مساحة من الحرية، خاصة في مجالي الأدب والفنون، لتزدهر الموسيقى الغجرية وتنال الاهتمام من قبل الدولة. غير أنها سرعان ما تقلصت مع تسلم ستالين السلطة، حيث حاول تسخير طاقات الغجر الفنية لتجربته السياسية، لكن تلك المحاولات باءت بالفشل.

وأسس الغجر مسرحاً في روسيا عام 1925 قدمت فيه أفضل الأعمال بلغتهم الروميني، وكان أول نتاجاته مسرحية «الحياة فوق العجلات» وهي كوميديا موسيقية من تأليف هيرمانو.. أول كاتب مسرحي غجري.

الموسيقيون الغجر في تركيا اكتسبوا سمعة كبيرة، خاصة بعدما مزجوا الموسيقى الشعبية التركية مع موسيقاهم لينتجوا خليطاً جميلاً من موسيقى راجت في عموم تركيا. وقد استخدموا آلات شرقية كالعود والقانون، إلى جانب الآلات التي يجيدونها كالكمان والكلارنيت والدفوف. أما في إيران فقد استخدم الموسيقيون الغجر عدداً كبيراً من الآلات الموسيقية الإيرانية المحلية كالطنبورة والسنطور وغيرهما، واستطاعوا تطويعها لتلائم موسيقاهم. ولعب الغجر الذين أبعدوا من البرتغال إلى البرازيل دوراً في غاية الأهمية بتطوير موسيقى السامبا.

وأدخل الغجر آلة الكلارنيت في الموسيقى الشعبية اليونانية. وللفنان الغجري كوستاس خاجتيس مساهمة فعالة في بلورة الفن الغجري في تفاصيل الغناء والموسيقى في اليونان، إثر حصوله على شهرة واسعة في هذا المضمار. وتمتد تجربة الفنان خاجتيس إلى أعوام طويلة منذ عمله مع والده وأشقائه في فرقة موسيقية غجرية.

وفي نهاية القرن التاسع عشر انفرد الغجر في فرنسا بعزف آلة «الهارب» وبرعوا فيها وألفوا العديد من المقطوعات إثر تطويع الآلة لسلمهم الموسيقي.

وساهم غجر بريطانيا في إرساء العديد من القيم في الموسيقى والرقص الفلكلوريين، إذ عرفوا الرقصة الشبيهة بالدبكة التي غدت فيما بعد الرقصة الشعبية الإيرلندية. كذلك عرفت بعض المقاطعات البريطانية بعض أغاني الغجر الخاصة بوداع المسافر أو استقبال الأعياد وغيرها من التقاليد والطقوس المرتبطة بتفاصيل الحياة اليومية.

وفي أمريكا انصبّ الاهتمام بموسيقى الغجر منذ عام 1921، مما دعا أكاديمية الموسيقى الأمريكية إلى منح زمالات دراسية وبحوث لعدد من الموسيقيين الغجر. كما أن الكثير من الملحنين الأمريكيين استندوا في مؤلفاتهم إلى الموسيقى الغجرية، واستمرت تلك الموجة في موسيقى الجاز والبوب.

وفي سبعينات القرن الماضي تأسس في مدينة سكوبيا جنوب يوغسلافيا المسرح الرومي، وأثار من خلال مؤسسه ومخرجه الأول رحيم برهان الكثير من الاهتمام إثر تقديمه العديد من العروض المتميزة باللغة الرومية.

معظم الأغاني الغجرية المعاصرة تتمحور مواضيعها حول الحب غير المتبادل والهجرة والهروب من الأعراف الحياتية الصارمة والحصول على متع قليلة وعابرة. واستخدمت الفرق الغجرية الحديثة آلات موسيقية لم يكن يعرفها الغجر من قبل كأدوات النفخ النحاسية والارغن الكهربائي. كما اتخذت تلك الفرق أسماء جديدة تستعرض حالة الغجر في الحاضر الماثل.. تختلف كلياً عن الأسماء القديمة التي طالما استخدموها في السابق.

وتعتبر موسيقى الفلامنكو الدليل الأكثر سطوعاً على تطور الموسيقى الغجرية، حيث نمت تلك الأنغام في أحضان قيم الأندلس التقليدية المتوارثة، لتغدو أهم أنواع الموسيقى المفعمة باستعراض الأسى والخسارة التي عاشتها المنطقة منذ قرون.

ومثلت تلك الموسيقى ولادة حقيقية للألم المبرح الذي عاشه الغجر على مرّ العصور، حيث تحفل بإيقاع الشجو والحزن العميقين، لتعبر عن كل المآسي والفواجع التي تعرضوا لها. وذكر

الفلامنكو للمرة الأولى عام 1774 في كتاب للباحث الإسباني خوزيه، وكان في صورته البدائية، وقدم بادئ الأمر في المقاهي العامة، لكن نشأته لا تزال مجهولة. ويعتقد الكثير من المحللين الموسيقيين أن أصول الفلامنكو تعود إلى الحضارة الايبرية، لكنه تطور على يد الغجر الذين وصلوا إلى إسبانيا قبل ذلك التاريخ بقرنين ونيف.

وفي القرن الثامن عشر تطورت موسيقى الفلامنكو بعد أن منح الملك كارلوس الثالث حقوقاً للغجر مساوية لحقوق الإسبان، لتبدأ بعدها موسيقى الفلامنكو بالانتشار والخروج من الجلسات العائلية الضيقة والمقاهي الشعبية الصغيرة إلى الصالات والمسارح. وفي القرن التاسع عشر أصبح الفلامنكو من الفنون الشعبية، ليس على صعيد إسبانيا فحسب، بل في عموم القارة الأوروبية، وكتب الملحنون قطعاً موسيقية وأوبرتات مستوحاة من نغماته.

ويلورت الأعوام الممتدة بين 1869 ـ 1910 العصر الذهبي للفلامنكو، إذ حورت العديد من المقاهي صالاتها الداخلية لاستقبال عروض الفرق الغجرية، بعدما غدت موضع ترحاب من قبل الشرائح المثقفة في المجتمع الإسباني، كما لاقت تشجيعاً ودعماً واضحين من قبل الجهات المختصة.

تطور الفلامنكو في تلك الفترة لم يقتصر على الموسيقى فحسب، بل شمل مفردات الأغاني وإيقاعها والآلات المصاحبة لها. وثمة رأي سائد في أوروبا يؤكد أن أصل مفردة فلامنكو عربية وتعني «فلاح منكم»، خاصة بعدما ظل الفلامنكو محصوراً بين بقايا الأندلسيين الذين آثروا البقاء في الجنوب الإسباني على الهجرة نحو

دول شمال أفريقيا بعد سيطرة الملكة إيزابيلا والملك فرندناند على الأندلس بأكملها.

ومع مطلع القرن العشرين ظهر العديد من أسماء رواد التجديد في موسيقى الفلامنكو والغناء المصاحب لها، إذ ولجت الأغاني مفردات تصور بعمق الكوارث المتواصلة التي لامست الغجر، حتى أن بعض المطربين أكدوا أنهم حين يغنّون يشعرون بطعم الدم في الفم. . وللغجر دور أساسي في تطوير هذا الفن، غير انهم لم يكونوا الوحيدين في ممارسته.

ويعتبر باكو دي لوسيا أحد أشهر عازفي الغيتار في موسيقى الفلامنكو، حيث يمتلك الكثير من البراعة والتقنية. وقد أتقن العزف بطريقة ذاتية بعيداً عن المدارس والمعاهد الفنية، إضافة إلى العازفين باكو بينيا وفرانتشيسكو بينيا بيريث.

وساهم الشاعر الإسباني فيدريكو غارسيا لوركا في منح الفلامنكو زخماً كبيراً ودفعه باتجاه الفن الراقي، خاصة بعدما نظم مهرجان الموسيقى الشعبية في الجنوب الإسباني عام 1922، لتحفيز الاهتمام الرسمي بهذا الفن الذي انحصرت عروضه في المقاهي الشعبية. كما عكست مجموعة الشاعر «أغاني الغجر» تقدير المثقف الإسباني للثقافة الشعبية التي فرضت عليها السلطات المحافظة حصاراً كبيراً تحت ذريعة انحطاطها.

موسيقى الفلامنكو توسعت فيما بعد وبدأت بالخروج من المقاهي إلى المسارح وصالات العرض وحلبات مصارعة الثيران، بعدما حصدت شعبية قل نظيرها خلال فترة زمنية قصيرة نسبياً.

ومن المعروف أن الفلامنكو كموسيقى وغناء ورقص يقترن

بنمط معيّن من السلوك غالباً ما يتسم بالفرح الطائش والعبث، إذ نشأت نواة الموسيقى والأغاني والرقصات المصاحبة لها في مناخات هامشية انضمت إليها شرائح المجتمع المنبوذة. وقد تعرّض الغجر في إسبانيا لحملات اضطهاد منظمة من قبل السلطات الرسمية المتشددة دينياً، مما حدا بهم للالتقاء بمجموعات مهمشة أخرى مثل الموريسكيين (بقايا الأندلسيين) واليهود لتنتج أول براعم الفلامنكو.

وشهد الفلامنكو النور في المجالس العائلية ومواقع العمل والحقول، ثم انتشر تالياً في الحانات والسهرات العامة، بعد أن كانت الطبقات الراقية تعتبره فناً رخيصاً وضحلاً لا تمارسه سوى الشرائح الخارجة عن القانون، مما حدا بإدراج هذا الفن لفترة زمنية ليست بالقصيرة ضمن الفعاليات الخالية من أية قيمة فنية أو اجتماعية.

ويستند الفلامنكو إلى عناصر متنوعة المصادر لعل من أهمها التراتيل البيزنطية والتراث العربي الأندلسي والنغمات الهندية، وهذا ما يفسر عدم ظهور منهج موسيقي مشابه عند أي من الجماعات الغجرية المنتشرة في عموم أوروبا.

وتتسم تقنية الفلامنكو بثلاث خصائص هي: نظام سلّمه الموسيقي يعود إلى أصول شرقية، ويعتمد السلّمين الغربيين (ميجور ومانير) كذلك يستخدم السلّمين المذكورين بصورة متداخلة، كما يعتقد ان القيثارات التقليدية الأولى الخاصة بالفلامنكو نشأت في إسبانيا في القرن الخامس عشر، وتصنع عادة من خشب السرو.. وهي أصغر حجماً من القيثارات الكلاسيكية.

مقومات الفلامنكو محددة سلفاً، فالموسيقيون هم الجزء الأكثر

أهمية في المعادلة: قيثارات عدة مع آلات الإيقاع التي تطورت لاحقاً إلى طبول ودفوف مختلفة، حيث اقتصرت في الماضي على صندوق خشبي خاص ببيع الفاكهة يجلس عليه العازف يسمى «كاخا» أو «كاخون».

الفلامنكو ثلاثي الأبعاد ويستند أساساً إلى الموسيقى والغناء والرقص. وتعتمد جميعها على مزاج الجمهور، إذ تتصاعد ديناميكية تلك المقومات وفقاً لنوعية الجمهور وتناغمه مع العرض.

فرق الفلامنكو بدأت تتسع منذ منتصف القرن الماضي، وأصبحت تضمّ حوالي عشرة عازفين لآلات جديدة انضوت تحت الآلات الأساسية، إضافة إلى راقصين وراقصات وعدد من المطربين ينشدون بالتعاقب.

الأغنية في الفلامنكو تدور في فلك الموسيقى، وغالباً ما تبدأ بارتجالات ضمن قواعد محددة ومساحة موسيقية، وعادة ما تكون الأغنية مستقاة من أشعار بسيطة وجميلة وعميقة في آن.

الرقص هو الآخر مرتجل ضمن حركات معروفة، ولامسها الكثير من التطور في العقود الأخيرة، حيث دخلت عناصر رقص جديدة كالباليه والسامبا، لكن روح الفلامنكو ظلت شاخصة كما هي منذ قرون عدة.

يرتدي الراقص أو الراقصة أحذية مزودة بكعوب لضرب الأرض بقوة للحصول على إيقاع مواز للحركات المؤداة والمتناسقة مع الموسيقى والغناء.. وثمة صنوج خشبية أو عاجية تُحمل في الأيدي للحصول على المزيد من النقرات، إلى جانب التصفيق باعتباره ميزة إيقاعية تضاف إلى بقية آلات الإيقاع.

وغالباً ما تكون ملابس الراقص سوداء وضيقة، وشابها الكثير من التغييرات في الأعوام الأخيرة مع ظهور أجيال جديدة من الراقصين المحدثين. أما الراقصة فترتدي الملابس المزركشة والواسعة.. وهي الملابس التي كانت ترتديها نساء الغجر منذ وصولهن إلى إسبانيا في القرن الخامس عشر.

الرقص المصاحب للفلامنكو يحوي الكثير من عناصر التعبير والقوة والكبرياء، وغالباً ما يكون بعيداً عن التمايل الهادئ للجسد.. إنه عنفوان الجسد ضد الظلم والقيود من خلال حركة الأيدي والأقدام ضمن تصاعد متناغم ومتواصل، ليس مع الموسيقى فحسب، بل تمتد مع أداء المغني.

وتبدو حركة الرقص السريعة ذاتية وغريزية، ضمن تصاعد تدريجي للموسيقى والإيقاع والغناء، حيث تترجم وحركات الراقص اللحن ومفردات الأغنية إلى حركات جسدية معبرة.

الرقص مع الموسيقى يعتبر من أقدم الفنون التي مارسها الغجر، ويرتبط عندهم بطقوس السحر والعبادة. ففي بلغاريا كانت الراقصات الغجريات يرشن بالماء كتعويذة لإنزال المطر، فيما يلمس الراقصون من الغجر في رومانيا الأطفال بغية شفائهم من الأمراض. وكانت الراقصات الغجريات في روسيا القيصرية يتمتعن بشعبية كبيرة، خاصة لدى طبقة النبلاء.

وثمة العديد من أشكال الفلامنكو تختلف وفقاً لخصائصها اللحنية وبنائها الهارموني وتكوينها الإيقاعي.

ومن أشهر مغنيّ الفلامنكو كاميرون الذي يعتلي قمة غناء هذا النوع دون منازع. وشكّل مع عازف القيثار الأشهر باكو دي لوسيا

ثنائياً متميزاً، لغاية رحيل كاميرون الذي ترك فراغاً كبيراً في مساحة غناء الفلامنكو.

الكثير من جماعات الغجر في المنطقة العربية تمارس مهنة الغناء والرقص بمصاحبة الموسيقى في إحياء الحفلات باعتبارها الفعالية الاقتصادية الأهم في تفاصيل حياتهم، وتعتمد هذه المهنة على النساء في توفير دخل الأسرة.

وفي مصر تخصّصت بعض الأسر الغجرية بإحياء الأفراح والحفلات في المناسبات الخاصة، كما تشترك في إحياء الموالد، حيث ينتقل أفراد الأسرة للإقامة في المولد طوال فترة الاحتفال. وتتوزع المهام على جميع الأفراد: الغناء للرجال والنساء، والرقص للنساء، في حين يقتصر العزف على الرجال فقط.

وتسود بين الأسر التي تعمل في هذا المضمار ظاهرة تقسيم العمل، إذ يحيي الرجال والنساء الأفراح ليلاً، بالمقابل تقتصر احياء «الصباحية» في منزل العروسين، على النساء فقط. وتقع مهمة حراسة النساء أثناء تأدية عملهن على الرجال.

امتهان النساء هذا المضمار يعدّ مصدراً أساسياً لدخل الأسرة، لذا يحرص الأب على التمسك ببناته أطول فترة زمنية ممكنة للحصول على المزيد من الأرباح، لهذا يفسر ظاهرة التنافس بين الأسر الغجرية على زواج أبنائهم من مغنيات وراقصات غجريات.

وأخذ الغجر من الغناء الشعبي المصري ما توافق مع فطرتهم، واحترفوا إنشاده، فحافظوا عليه من الاندثار، كما برعوا في عزف الربابة والمزمار، في حين مارست النساء الرقص في الأفراح والمناسبات الخاصة ويطلق عليهن تسمية «الغوازي». ومن النادر أن

تجد عازف مزمار أو راوي سيرة شعبية أو مداحاً ليس منهم. ومن أكثرهم شهرة الريس متقال القناوي وابن عمه شمندي، وسيد الضو وخضرة محمد خضر، وعائلات كاملة أخرى. كما لبعض جماعات الغجر باع طويل في الأراجوز والبيانولا.

حضور الفن الغجري في العراق لا يستهان بأهميته ومساحته، لكنه كان محاطاً بقدر واضح من الخصوصيات يأتي في مقدمتها أنه انحصر في دائرة الغناء ولم يغادرها إلى أية حلبة فنية أخرى، من خلال حفلات الأعراس أو الأفراح التي يحييها الغجر، أو في الحفلات التي تقام في أماكن إقامتهم التي غالباً ما تكون عند مداخل المدن الكبيرة، ويقصدها الكثير من عشاق هذا الغناء ومعجبيه، خاصة وأنه مصحوب بنوع من الرقص النسوي. وتطلق على الغناء الغجري شعبياً تسمية (غناء الكاولية).

دخل الفن الغجري أولاً إلى الإذاعة، ثم إلى التلفزيون، وظل منذ ستينيات القرن الماضي مقتصراً على الغناء. وتمثلت العناية الرسمية بالغناء الغجري إثر اهتمام شرائح شعبية به وعلى وجه الخصوص في مناطق الريف العراقي، إذ يكاد يحتل المرتبة الأولى في البرامج الإذاعية والتلفازية التي يتابعها سكان الريف، وسمي هذا الغناء بالغناء الريفي، في حين أطلق على النساء اللواتي يمارسنه تسمية بنات الريف. ومن الفرق التي نالت شهرة واسعة فرقة الفنانة حمدية صالح وفرقة شكرية خليل شياع وفرقة ريم محمد سوادي وفرقة ساجدة عبيد، ثم قدمت الساحة الغجرية فيما بعد عدداً من المغنيات الغجريات أمثال سورية حسين وصبيحة ذياب وغزلان وغيرهن.

وسجلت الفنانة حمدية صالح 23 أغنية للإذاعة والتلفزيون.. بينما سجلت مطربات غجريات أخريات أشرطة غنائية خاصة نالت قدراً من النجاح خارج نطاق الأطر الرسمية.

وامتد النشاط الفني لغجر العراق إلى خارج حدوده، إذ أحيت العديد من تلك الفرق منذ مطلع السبعينات حفلات في الكويت والبحرين والإمارات وقطر وسوريا والأردن.

الفن الغجري ظل فترة طويلة يعيش عزلته ولم يستطع أن يتجاوز حدوده الضيقة، رغم الدعم الرسمي، ولم يشكل هذا الإهمال أرقاً للفرق الغجرية لأنها كانت تسعى إلى الكسب المالي بالدرجة الأولى. وفي عقد التسعينات من القرن الماضي اقتحم الفن الغجري خشبة المسرح العراقي، واعتلت بعض الفنانات الغجريات خشبة مسارح عراقية عدة ضمن فقرة غنائية أو راقصة تقحم في ثيمة العرض المسرحي.

ويلازم الرقص والغناء الفنانات الغجريات منذ طفولتهن بتوجيه من الأسرة، وذلك لبناء جسد مرن ولتكيفهن اجتماعياً قبل دخولهن إلى عالم الرقص والغناء المتخم بالمشاكل. وتجري حفلات الغجر عادة داخل مستوطناتهم ومخيماتهم تلبية للزبائن القادمين إليهم، أو إحياء الحفلات في الأرياف وفي الأحياء الشعبية الموجودة بالمدن الكبيرة تلبية لدعوات الحفلات الأسرية لإحياء الأعراس. وثمة فرق غجرية أخرى تمارس المهنة في الملاهي الليلية.[1]

---

(1) الغجر والقرج في العراق، طه حمادي الحديثي، إصدار جامعة الموصل، الطبعة الأولى ـ 1979، ص 120.

وأبدع الغجر في تركيا بفن الاراجوز (قراقوز) الذي يعدّ حالياً من أبرز وأقدم الفنون المسرحية التركية الخاصة بالأطفال، ويرجع تاريخه إلى القرون الوسطى، حيث بدأ يزدهر فى الثقافة التركية ويأخذ مكانه فيها مع بداية العهد الذهبي للدولة العثمانية، الذي بدأ في القرن السادس عشر الميلادي. . وهو التاريخ الذي رسخ فيه الغجر وجودهم في تفاصيل الحياة التركية.

انتشر هذا الفن الغجري في الدول التي كانت تابعة للسلطنة العثمانية، وسمّي قديماً بفن خيال الظل نظراً لاعتماده على الظل الناتج عن تحريك أشكال ورموز الحكاية والمنبعث من ضوء مُسلط على خلفية ستارة بيضاء اللون.

وتعني مفردة (قراقوز) في اللغة التركية «صاحب العينين السوداوين». . وهي التسمية المطلقة على شخصية غجرية فكاهية وساخرة كانت بمعية أحد الوجهاء الأتراك باسطنبول تعرضت للعقاب من قبل السلطان أورخان المتوفى عام 1360 نتيجة حنثها بوعد الانتهاء من بناء جامع بمدينة بورصة التركية فى القرن الرابع عشر الميلادي.

وأبدع الغجر قديماً بتأليف الحكايا والحوارات الخاصة بهذا الفن الشعبي الساخر، ولا يزال البعض من غجر مصر يزاول هذه المهنة لغاية اليوم، رغم أن مبدعيها حاضراً من خريجي المعاهد والجامعات الفنية.

الأساطير

الحقيقة ليست مؤلمة.. الجهل وحده يجلب الأسى.

حكمة غجرية

ترتبط الأساطير بحياة الغجر وتسيطر على أغلب تفاصيلها، إذ إن زمنهم بعيد كل البعد عن الارض.. أو الواقع، ولا يرتبط مع التاريخ البعيد، لذا فالأسطورة هي بمثابة الخيمة التي تتفيأ تحت ظلها جماعات الغجر. وتتعلق معظم تلك الأساطير بأصولهم وتاريخ هجراتهم المتواصلة، كما تعكس في الوقت ذاته ممارساتهم ومعتقداتهم الخاصة.

وتتباين الأساطير بين الجماعات الغجرية، خاصة اثر انعكاس أساطير الشعوب التي شاركوها الحياة وتبنّوا الكثير من معتقداتها.

كثيرة هي الأساطير الشفاهية التي يتناقلها الغجر وتنحدر عادة من الفلكلور الهندي وتميل إلى الاختصار، وتستعرض العفاريت والجان وأرواح الجماد والكائنات ما بعد الطبيعة.. وهي ذات دلائل واضحة في تلك الأساطير، كما أنهم حافظوا من خلالها على أهمية توازن العناصر في الطبيعة.

المعتقدات هي الأخرى تعكس ثقافة الغجر وممارستهم اليومية. وتعتبر الجماعات الغجرية بشكل عام أن السحر موهبة استثنائية ويعامل الساحر باحترام خاص من قبل أفراد الجماعة، معتقدين بوجود الأرواح، وهي في الغالب اناث، ويمكن لتلك الأرواح أن

تنفذ في الاشياء المادية، محاولة خداع بني البشر ومسّهم. وثمة الكثير من الأساطير للحماية من الأرواح. وتتباين بتعدد الجماعات الغجرية وتمايز حياتها ومعايير سلوكها.

وثمة العديد من الأساطير الشائعة بين الغجر المتوشجة مع حياتهم والمترافقة مع قيمهم وطقوسهم.. وفي هذا الفصل نستعرض بعضها، خاصة تلك المعنية بتفسير ظواهر حياتية شاخصة في سلوك الغجر:

الإنسان الأول

قرر الإله ذات يوم صنع إنسان، مستخدماً قطعة جير. صنع التمثال الأول ووضعه في الفرن لينضج، غير أن الإله نسي ما وضع في الفرن، وما ان تذكر حتى عاد ليجد التمثال قد احترق واصبح أسود.. فكان الإنسان الأسود الأول. ثم بدأ بصنع تمثال آخر، وخشية من احتراقه أخرج التمثال قبل أوانه، فكان الإنسان الابيض الأول. وفي المرة الثالثة نجح الاله في مراقبة التمثال جلياً وهو ينضج داخل الفرن، ليكون الإنسان ذا البشرة السمراء.. وهو الغجري الأول.

صراع الإخوة

في غابر الأزمان ليس ثمة انسان كان يقطن الأرض، لم يكن سوى السماء والأرض، وكان لهما خمسة أبناء: الشمس، القمر، النار، الرياح، والضباب. ترعرع الابناء الخمسة وكبروا ليدخلوا فيما بعد في نزاعات متواصلة، فقرر كل من الارض والسماء أن يجدا

فضاءً فسيحاً ليطوفا به الأبناء، غير أن الأبناء غضبوا لهذا القرار وقرروا الانفصال عن والديهم والعيش في محيط يناسب كل منهم.

ابتدأ القمر بمهاجمة أمه الأرض، غير أنه فشل، فاستقر على مرأى منها، وكذلك كان الفشل من نصيب النار والرياح والشمس والضباب أيضاً.. حينها اندفع الأبناء للتنافس فيما بينهم: مَن سيبقى مع أمه الأرض، ومَن سيلتحق بأبيه السماء. اختار كل من الشمس والرياح والقمر، السماء، فيما فضل الضباب البقاء مع أمه الأرض. ومنذ ذلك الحين انفصلت الأرض عن السماء ليدخل الأبناء الخمسة في صراع متواصل على مر العصور والدهور.

الكمان وحيداً.. وحزيناً

مارا.. شابة غجرية تقطن إحدى الغابات برفقة والديها وأشقائها الأربعة. وقعت مارا في غرام شاب غير غجري معروف بالشجاعة، غير أنه لم يعرها انتباهاً، رغم جمالها، فالتجأت إلى الشيطان طلباً لمساعدته لاستمالة الشاب وان يقع في حبائل عشقها.

وافق الشيطان وطلب منها أن تسلم إليه جميع أفراد أسرتها، فصنع من أشقائها الأربعة أوتاراً، ومن والدها صندوقاً مجوفاً، أما والدتها فصنع منها القوس، ليغدو بالتالي أول كمان في تاريخ البشرية لتعزف عليه مارا وتسحر الشاب ويقع في غرامها، غير أن الشيطان كعادته لم يكتف بذلك فأبعدهما عن الغابة لتبقى آلة الكمان وحيدة وحزينة.

مر غجري بسيط في الغابة ليجد الكمان ويتعلم العزف عليه ليطوف المدن والقرى ناشراً ألحانه في كل مكان.

حيث تضيء الشمس

كان الغجر يعيشون في بلاد مظلمة لا تضيئها الشمس في النهار ولا القمر والنجوم ليلاً، لكنهم كان يسمعون من بعض المسافرين العابرين كيف أن الكواكب تنير بقية العالم، حيث الشمس الدافئة والسماء الزرقاء وأزهار الليلك البنفسجية والعشب الأخضر في السهول. كان أمير بلاد الغجر المظلمة يستغرب من عدم عدالة العالم فأعلن أنه سيمنح أعز ما يملك، ابنته بييلكا، إلى من يستطيع أن يقنع الكواكب أن تضيء بلاده. وحين وافق كالو على خوض مغامرة البحث عن الشمس، سار طويلاً وواجه التنين الذي كان يحجز الشمس عن تلك البلاد، ثم تغلب عليه لتضيء الشمس بعدها عتمة الجبال والدروب السائرة صوب الوديان.

استأنفت الحياة اليومية سيرها، غير أن غجر تلك البلاد الذين حرموا زمناً طويلاً من الشمس والقمر والنجوم، أرادوا أن يتبعوا سير تلك الكواكب ليروا كيف تنير بقية العالم. وخلال رحلتهم الطويلة تعلموا مع أحفادهم كيفية السفر وفقاً لسير الكواكب ومعرفة الجهات والزمن. . لتغدو بالتالي كل الأماكن التي تضيئها الشمس هي موطنهم، وأن العالم بأسره ملكهم.(1)

عائلة العفاريت

آن. . ملكة الجان الجميلة التي تقطن على قمة جبل صخري. . وقع في غرامها ملك العفاريت، وحين اعترف لها بحبه، خافت

(1) أوديسة الغجر، خليل صويلح، دار الحصاد للنشر والتوزيع ـ دمشق، الطبعة الأولى ـ 1993، ص 11.

الأميرة ورفضته لبشاعة خلقته. فهاجمت العفاريت الأرض وقتلت العديد من البشر والجان معاً، لتوافق بعدها الأميرة مكرهة على الزواج من ملك العفاريت لتنقذ بقية البشر من الموت.

رفضت الأميرة الجميلة منح نفسها لزوجها، فأصابه اليأس وهام على وجه ليلتقي بضفدع ساحر نصحه بأن يطعم زوجته مخ غراب أبقع لتنام وينال منها ما يرغب.

نفّذ ملك العفاريت نصيحة الضفدع لينال من زوجته فولدت عفريتاً يدعى (ميلالو) على شكل طائر برأسين وله مخالب حادة وتتلخص مهمته في التحريض على القتل والاغتصاب والإصابة بالجنون. كبر (ميلالو) وتزوج من (ليلي) الدبقة وكانت على شكل سمكة برأس إنسان ولها شعيرات تتدلى منها من كل جانب.

أصبح لميلالو العديد من الاطفال، بالمقابل كان والده مستمراً في الإنجاب من الملكة آن عند تنويمها، لتلد عدداً آخر من العفاريت يتخصص كل منها في إيذاء بني البشر بطريقته.

حزنت الملكة آن كونها ولدت كل هذا الكم من العفاريت المؤذية. وبدأت رحلة البحث لتغدو عاقراً. وافق ملك العفاريت على منح الملكة حريتها لتعيش وحيدة في قلعة بين صخور شاهقة.

الأمير الغجري

في غابة بعيدة كانت امرأة غجرية حزينة بسبب عقمها تعيش مع زوجها، قابلت ذات صدفة موسيقياً عجوزاً نصحها بأن تحفر في الأرض وتملأ الحفرة حليباً، ثم تغليه وتشربه. نجحت الوصية وحملت المرأة صبياً، إلا أنه فقد والديه وهو في العشرين من عمره،

فقرر أن يطوف الأرض بحثاً عن حظ أفضل. وبعد مسيرة طويلة توقف في مدينة قرر ملكها أن يزوج ابنته الرائعة الجمال إلى شخص يفعل ما لم يفعله غيره من قبل. ذهب الشاب الغجري إلى بلاط الملك واستفسر عما يجب فعله ليتزوج من ابنته. غضب الملك وأمر بسجن الفتى.

ذات ليلة زارت (موتيا) ملكة الجان الشاب الغجري في زنزانته وقدمت له صندوقاً وعصا صغيرة، وأمرته بقطع أربع شعرات من رأسها ليثبتها على الصندوق. وبذلك صنع الشاب أول آلة كمان.

في صباح اليوم التالي طلب الشاب مقابلة الملك. عزف الشاب الغجري أمام الملك واستطاع أن يثير إعجابه ثم يضحكه ويبكيه في آن.. هو أمر لم يفعله أحد من قبل. وهكذا تزوج الشاب الغجري ابنة الملك ليغدو أمير البلاد.

جاك والصندوق الذهبي

عاش جاك الشاب الغجري المغامر منذ ولادته في غابة شاسعة المساحة، ولم ير شخصاً آخر سوى والديه. ذات يوم قرر مغادرة الغابة، فصنعت له والدته كعكة كبيرة الحجم مع دعائها له بالسلامة، فيما اعطاه والده صندوقاً ذهبياً محذراً إياه بأن لا يفتحه إلا إذا تعرّض لخطر محدق.

سار جاك أياماً عدة ليجد قصراً فخماً.. طرق بابه وسأل الخادم عن طعام ومأوى بعد أن أتعبه السفر الطويل. أوصل الخادم طلب جاك إلى سيد القصر. لكن السيد طلب من جاك أن يقدم مقابل الطعام والمأوى عملاً. وافق جاك، فأمره سيد القصر بحفر بحيرة

كبيرة خلال مدة زمنية محدودة.. وإلا خسر حياته.

ذُعر جاك وانتابه الخوف فقرر فتح الصندوق الذهبي الذي منحه إياه والده. فقفز ثلاثة رجال حمر صغار من الصندوق فأخبرهم جاك عما يحتاج إليه، فما كان منهم إلا أن تركوه ينام ليبدأوا العمل. وفي الصباح كانت ثمة بحيرة كبيرة.

تعجّب سيد القصر من الإنجاز الذي حققه جاك، فعرض عليه أن ينجز عملين آخرين ليتزوج من ابنته.. وهما قطع كل الأشجار المحيطة بالقصر وتشييد قلعة كبيرة ويؤلف فوجاً من الجنود لحمايتها.

ذات يوم خرج جاك مع سيد القصر إلى الصيد، فاستغل الخادم غيابه وسرق الصندوق وسلمه إلى سيده. حزن جاك وقابل ملك الفئران وطالبه بضرورة مساعدته على إرجاع الصندوق. تأخرت الفئران عن البدء بعملها. فاستدعى جاك ملك الضفادع طالباً منه مساعدته. منحه ملك الضفادع حصاناً يعدو بسرعة الهواء، ثم أرسل جاك إلى ملك الطيور لمساعدته، سرقت الفئران الصندوق وحمله نسر كبير لكنه سقط في البحر، فغاصت الضفادع في أعماق البحر وانتشلت الصندوق وسلمته إلى الفئران لتمنحه إلى جاك ليلتقي بعدها ابنة سيد القصر ويتزوجها وينجب منها طفلاً يشبهه إلى حد كبير.

الحصان العجوز والبنت القمرية(*)

في خيمة حمراء صغيرة عاش زوجان: حصان عجوز وامرأة

(*) ترجمة صالح سعد، وأعدت بتصرّف من قبل المؤلف.

صغيرة السن. . تكاد أن تكون طفلة. ورغم شيخوخة الحصان، فإنه ما زال قوياً.

كان الزوج الحصان قد اختطف الطفلة من سوق المدينة البعيدة، وأسكنها خيمة صغيرة حمراء اللون، ممتلئة بغناء الزوجة وصوتها المحلى بطعم السكر البري والمفعم برائحة البحر.

دارت الأعوام فيما الخيمة الحمراء كانت ممتلئة بالغناء والألحان، حتى جاء اليوم الذي قررت فيه الشمس أن تمنح ابنها الصغير القمر الحرية، بعدما أصبح يافعاً، وليكون أكثر قرباً من بقية النجوم والكواكب الدائرة في عمق الفضاء.

ولخشيتها من ضياعه في قرار المجرات، ألقنته أمه بأن يستدل على علامة في الأرض، وكانت الخيمة الحمراء الصغيرة علامته الدالة، بعد أن قصت عليه أمه حكاية الخيمة وصوت الزوجة.

تيقظ خيال القمر واشتعلت رغبته في سماع صوت الزوجة. لكنه لم يفصح لأمه عن تلك الرغبة. قبّل أمه على جبينها قبلة عرفان وهو يودعها قبل أن ينطلق عبر المجرات، باحثاً عن الخيمة.

لعب القدر لعبته، فعندما وجد الخيمة الحمراء صادف خروج الحصان العجوز قاصداً سوق المدينة البعيدة ، وكان قد تعود على شراء الحطب لقاء يوم عمل شاق، إذ كانت امرأته الشابة بحاجة إلى الدفء بعدما تفرغ من الغناء.

قرر القمر الشاب أن يفرد بعضاً من أشرعته الفضية على الخيمة وهبط على الأرض بخفة ورشاقة. لملم حبال أشرعته بسرعة حين لامس الأرض، ودلف داخل الخيمة.

لا أحد يعرف ما جرى في تلك الليلة، فالمرأة الشابة قد غشى

بصرها بريق القمر الفضي وسرى في روحها دفء الشباب، أما هو فقد شرب حتى الثمالة وافترش أعشاب الحصان العجوز وأكل قطعة من صوت المرأة المحلى بطعم السكر البري والمفعم برائحة البحر.

تواصلت لقاءات القمر مع الزوجة كل ثلاثين يوماً، حين تطلق الشمس ابنها اليافع ليتجول بين الكواكب، وبذات الوقت الذي يخرج فيه الحصان العجوز ليشتري حطباً من سوق المدينة البعيدة مقابل يوم عمل شاق.

تمضي أيام وتأتي أخرى، فيما يدخل القمر الخيمة الحمراء مع دوران الشمس والأرض معاً. أما الحصان العجوز فكان يجلس كل ليلة ليستمع إلى غناء زوجته، دون أن يفطن لملمس القمر الساخن فوق أعشابه، وحتى الشمس لم تلاحظ شحوب ابنها القمر وهزاله وشروده، إضافة إلى جفاف مياهه.

لم يمس القمر جسد الزوجة، إذ كان مغرماً بالتأمل فيها.. ومولعاً بصوتها المحلى بطعم السكر البري والمفعم برائحة البحر. فلا شيء يغويه أكثر من تبادل تلك النظرات الحالمة. ومن نظراته تلك تعلم الساهرون تحت نافذة الليل، التطلع إليه ومناجاته بتلك الزفرات اليائسة والساخنة.

كان القمر المتأمل يقضي زيارته الشهرية في عد تفاصيل زوايا جسد المرأة، التي كانت هي الأخرى مغرمة بوهجه الفضي. كان كل منهما يدرك سر حاجة الآخر إليه.

تكررت أكثر من مرة تلك الآلام الباردة التي كانت تملأ حوض المرأة بعد انصرافه بقليل، وكأنها تود لو تبوح إليه بسر دفين لا تقوى على الاحتفاظ به.. لكنها لا تستطيع. وفي إحدى الليالي جمعت

شجاعتها وبادرت بشرح آلامها، وكيف تشعر الآن ببرد لافح يشمل كيانها، وأنها تحتاج إلى دفء يؤمنه لها حطب الحصان العجوز. عندها فكر القمر الشاب كيف يحتوي كيانها ويمسح عنها آلامها الباردة كل شهر.

كانت تلك الليلة، نصف المعتمة، التي خرج فيها الحصان العجوز كعادته، فيما تدلى القمر على حباله الفضية وتسلل إلى الخيمة الصغيرة الحمراء، ليجد المرأة وقد انتابتها الآلام الباردة ذاتها، لكنها كانت شبه نائمة. لم يفترش أعشاب الحصان العجوز هذه المرة، بل خلع عنه رداءه المسحور وأفرده لترقد عليه المرأة الشابة بعد لفعها بأشعته الدافئة.

في تلك الليلة.. منحته المرأة كيانها، فيما انحسر الضوء منه ليغدو شاحباً مثل صخرة قديمة.. وما كان لأحد أن يعرفه لو رآه تلك الليلة.

انطلق نحو الفضاء، مهتزاً مثل عنقود ضوء، فاجأته بنات باخوس المتدفقات بالنشوة، فأخذنه ليعتصرنه خمراً. استقر القمر في موضعه المعتاد مطمئناً إلى نوم أمه الثقيل في الجهة الأخرى من الفضاء، فيما عادت الزوجة الشابة إلى النوم على أعشاب الحصان العجوز ثملة، وكان الاثنان قد شعرا بأن شيئاً ما تغير فيهما.. دون أن يعيا ما هو على وجه الدقة.

في تلك الليلة تلاشت رائحة البحر واختفى طعم السكر البري من صوت الزوجة الشابة بعدما سقط في داخلها ضوء القمر الفضي. القمر هو الآخر أمسى برجل كبير فقد شعره وانحسر نوره ليغدو مجرد مرآة تعكس شعاع أمه الساطع.. ومن يومها تحدق نحوه عيون

الفتيات الصغيرات الحالمات وهن على أعتاب البلوغ بانتظار أن يسقط ضوؤه الفضي داخلهن. غير أنه يظهر كعادته مرة كل شهر ليرمي في أحواضهن الآلام الباردة، فيما يفتش بينهن عن حبات ضوئه الضائعة.

المرأة الشابة لم تعد كذلك بعد أن نما الضوء في أحشائها ونمت معه كل آلامها الباردة، وانقطع القمر عن زيارتها شهرياً. الحصان العجوز من جانبه لم يفهم سر التكور في جسد المرأة التي تنام بين قوائمه كل ليلة منذ أن اختطفها من سوق المدينة. . كذلك عجز عن فهم سر ضياع صوتها الجميل ونسيانها للأغاني الجميلة التي كانت تنشدها.

ذات ليلة شبه معتمة خرج الحصان العجوز كعادته قاصداً سوق المدينة، لكنه سرعان ما عاد بعد أن رفض التجار أن يبادلوه الحطب بيوم عمل شاق. وعندما اقترب من خيمته سمع زوجته وهي تصرخ أنيناً بصوت نحاسي غير محلى بطعم السكر البري وليس مفعماً برائحة البحر. أسرع إليها مستفهماً ليراها غارقة في بركة ملونة بحمرة النار، وبعض من زرقة الفضاء البعيد. فكر في أن السبب يعود إلى عدم إتيانه بالحطب، فجلس على باب خيمته يبكي فحولته ويشكو إلى القمر الشاحب قلة حيلته.

في صباح اليوم التالي. . وبعدما اتخذت الشمس مكانها على ظهر الخيمة، وألقت بتحيتها المعتادة، أفاق الحصان العجوز بعد أن لسعت جلده حزمة من أشعة الشمس اللاهبة، هرول إلى داخل الخيمة قلقاً، لمح فوق أعشابه القديمة نوراً ساطعاً يغني أغنية حزينة محلاة بطعم السكر البري ومفعمة برائحة البحر. اقترب من الضوء

أكثر ليرى أنه يحمل بين يديه طفلة قمرية خضراء عيناها معلقتان في الفضاء البعيد، بينما تداعب قدماها الفراغ. . فيما كانت الزوجة تغط في نوم عميق كأنه الموت.

لا نعلم كم من الأعوام تعاقبت، حتى جاءت تلك الليلة شبه المعتمة التي فهم فيها الخصان العجوز سر ما حدث. وكان الشيب والوهن قد نالا منه، فلم يعد بمقدوره جلب الحطب مقابل يوم عمل شاق. قرر الحصان أن يحمل الزوجة الشابة وطفلتها القمرية على ظهره متجهاً نحو سوق المدينة. واستطاع بعد جولة طويلة أن يعود ومعه كمية من الحطب جلست فوقها الطفلة القمرية وكانت قد وصلت إلى عمر البلوغ لتغني وهي عائدة إلى الخيمة، بصوت محلى بطعم السكر البري ومفعم برائحة البحر، وكأنها تبكي أمها التي تركها الحصان هناك مقابل كومة من الحطب لليالي الباردة المقبلة.

اللقلق الغجري

ذات يوم قرر الإله النزول إلى الأرض والسير في طرقاتها لمعرفة أحوال العباد. التقى خلال جولته بعدد من البشر وتكلم معهم بلغتهم. وعن طريق الصدفة التقى الإله بغجري، وأعطاه كيساً كبيراً وأمره بأن يأخذ الكيس بعيداً ويرميه في النهر. . دون أن يخبره بما يحتوي الكيس.

حمل الغجري الكيس على ظهره وسار متجهاً نحو النهر البعيد. وكعادته فكر الغجري أن ثمة شيئاً ثميناً يحتويه الكيس، ربما يكون ذهباً. واصل الغجري المسير وهو يحمل الكيس، غير أنه لم يتوقف البتة عن التفكير في محتويات الكيس.

توقف بعدما قطع مسافة طويلة وتساءل مع نفسه: ماذا يحتوي الكيس حقاً.. لِم لا أفتحه وأرى ما بداخله؟ أنا الآن بعيد جداً وليس هناك من يراني.

قرر فتح الكيس.. وفي اللحظة التي فتحه خرجت منه أنواع من الزواحف والثعابين والعقارب والضفادع. زحفت كل تلك المخلوقات بعيداً لتنتشر بسرعة في كل أرجاء الأرض.

غضب الإله من الغجري ولامه على عدم إنجازه العمل المكلف به، فقرر تحويله إلى طائر اللقلق وقال له: حكمت عليك أن تقضي بقية حياتك كلقلق لتجمع كل تلك المخلوقات التي خرجت من الكيس. ومن يومها بدأ طائر اللقلق يبحث عن تلك المخلوقات ويلتقطها آملاً في أن يعيدها ثانية إلى الكيس ذات يوم.

المحتويات

صدر للمؤلف عن المركز الثقافي العربي:

ـ الصيف الأخير

دراسة في أعمال يانيس ريتسوس الإبداعية ـ 1997

ـ بغداد

ملامح مدينة في ذاكرة الستينات ـ 2002

جمال حيدر

الغجر

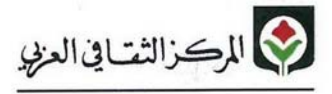
عندما تقول غجر، هذا يعني أنهم: المشعوذون، اللصوص، السّحَرَة، الكفَرَة، الفئات المنحطّة.

لقد ووجه الغجر دائماً بنوع من الإقصاء من المجتمع، وتعرضوا دائماً لمعاناة حفرت عميقاً في تاريخهم وتاريخ البشرية.

في العقود الأخيرة بدأت تتغير النظرة إلى الغجر في عدد كبير من بلدان العالم، وإن بقيت على حالها في العالم العربي، حيث يطلق عليهم تسميات مثل النَّوَر والكاوية...

استطاع الغجر المحافظة على تراثهم وتقاليدهم وطقوسهم، رغم أنهم عاشوا بين حضارات وشعوب مختلفة. وقد حافظوا على ارتباطهم بالموسيقى والرقص، وحافظوا على معتقداتهم وأساطيرهم.

يحاول هذا الكتاب أن يكون حيادياً في البحث في أصول الغجر وطقوسهم ومعتقداتهم وثقافتهم. ويحاول الوصول إلى عوالم الغجر الحقيقية والجانب المخفي من المنحى الإنساني الذي يغلّف حياتهم.



الدار البيضاء: ص.ب 4006 (سيدنا)
بيروت: ص.ب: 113/5158
www.ccaedition.com
markaz@wanadoo.net.ma


ISBN 978-9953-68-330-1
9 789953 683300